دُونْ جْوَانْ

أشخاص المسرحية

دون جوان[1] : ابن دون لويس.
سغاناريل : خادم دون جوان.
الفير : زوجة دون جوان.
غوسمان : حامل السلاح لدى الفير.
دون كارلوس :
دون الونس : } شقيقا الفير.
دون لويس : والد دون جوان.
شارلوت :
ماتورين : } فلاحتان.
بيارو : فلاح.
تمثال الفارس الآمر القائد.
لافيوليت :
راغوتان : } خادمان عند دون جوان.
السيد ديمونش : بائع او تاجر.
لاراميه : سيّاف.
فقير :
حاشية دون جوان
حاشية دون كارلوس ودون الونس.
شبح

تدور احداث المسرحية في صقلّية.

---

(١) دون هو لقب النبلاء في اسبانيا.

الفصل الأول

مشهد قصر[١]

المشهد الأول

سغناريل، غوسمان

سغناريل (**لكارلوس يحمل منشقة**[٢]) : بالرغم مما يقوله أرسطو والفلسفة كلها، لا شيء يضاهي التبغ، فهو ولع النبلاء من الناس ومن يعيش بدونه لا يستحق العيش. انه ليس فقط يُفرح الأدمغة البشرية ويُطهِّرها وانما يعلِّم النفوس الفضيلة وبه يتعلّم المرء أن يكون نبيلاً. ألا ترى كم يصبح كريماً مع كل الناس وكم يُسرُّ في توزيعه يميناً ويساراً أينما وُجد ما أن يتنشّق القليل منه، فلا ينتظر أن يطلب منه ذلك إذ يهبُّ لتحقيق امنيات الناس. صحيح أن التبغ يوحي بمشاعر الشرف والفضيلة لكل من يتنشّقه. بل كفانا كلاماً عنه. لِنَعُدْ قليلاً الى موضوعنا. هكذا إذن، يا عزيزي غوسمان، دونا الفير، سيدتك، بعد أن فاجأها رحيلنا، شرعت في اللحاق بنا وقلبها الذي طالما عرف سيدي كيفية التأثير عليه بقوة، لم يستطع العيش، كما تقول، دون المجيء الى ههنا والبحث عنه. أتريد أن أكشف لك فيما بيننا عن حقيقة افكاري ؟ أخاف أن لا يبادلها

(١) حسبما يبدو، هو مبنى عام مفتوح لجميع المتنزِّهين.

(٢) ما يجعل فيه النشوق دقيق التبغ.

مشاعر الحب وأن لا يأتي سفرها الى هذه المدينة إلّا بالقليل من الثمار وأن يكون أنفع لو بقيت هناك.

غوسمان : وما السبب ؟ ارجو، يا سغاناريل، أن تقول لي : ما الذي يوحي لك بخوفٍ على هذا القدر من الشؤم ؟ هل فاتحك سيدك بهذا الشأن وهل قال لك أن فتوره تجاهنا إضطرّه الى الرحيل ؟

سغاناريل : كلا ولكن، حسبما أرى، انا أعرف تقريباً مسار الأمور وقبل أن يفاتحني بشيء، أكاد أراهن ان الأمر كذلك. قد أكون مخطئاً ولكن، في النهاية وفي مواضيع كهذه، أعطتني التجربة بعض الخبرة.

غوسمان : ماذا ؟ أيكون هذا الرحيل الغير منتظر خيانةً من دون جوان ؟ أيمكنه الإساءة الى حبٍ دونا ألفير العفيف ؟

سغاناريل : كلا ولكنه لا يزال يافعاً ولا يملك الشجاعة ...

غوسمان : أيقوم رجل بمستواه بعمل جبان كهذا ؟

سغاناريل : آه، نعم، مستواه ! السبب وجيه وهذا ما يمنعه من القيام بأشياء !

غوسمان : ولكن روابط الزواج المقدّسة تجبره على الإلتزام.

سغاناريل : آه، يا صديقي المسكين غوسمان، صدقني، انت لا تعرف بعد من هو دون جوان.

غوسمان : انا لا اعرف حقاً من قد يكون هذا الرجل ولا سيما اذا كان قد خاننا هذه الخيانة، ولا افهم قط، بعد هذا القدر من الحب والإندفاع المشهود والإخلاص والولاء الملحاح والأماني والتنهدات والدموع والرسائل الولهى والإحتجاجات المتوقدة الأيمان المتكررة ومظاهر الحب التي أظهرها، حتى إنه إقتحم من شدة ولهِهِ حاجز الدير المقدس للوصول الى دونا الفير، لا افهم، كما قلت، بعد كل هذا، كيف يملك القدرة والشجاعة على الحنث بوعده.

سغاناريل : انا لا يصعب عليّ فهم ذلك. لو كنت تعرف المحتال الماكر لوجدت الأمر سهلاً بالنسبة اليه. أنا لا اقول أن مشاعره تبدّلت تجاه دونا الفير، لست متأكداً بعد من ذلك. انت تعرف أنني رحلت معه تنفيذاً لأوامره وأنه، منذ وصوله، لم يتحدّث الي قَط؛ ولكن، على سبيل الإحتياط، اعلمك، فيما بيننا، أنك ترى في دون جوان، سيدي، أكبر فاسق حملته الأرض، كلباً

مسعوراً، شيطاناً، عنيداً، ملحداً، غير مؤمن لا بالسماء ولا بجهنم ولا بالغول الذئبي (ساحر يجول ليلاً متنكِّراً بهيئة ذئب)، يقضي حياته كحيوان فظ، كخنزير أبيقور[1]، كسردنبال[2]، حقيقي يَسُدُّ أذنيه عن التأنيب الذي قد توجَّه اليه ويعتبر كترهات كل ما نؤمن به. قلت لي انه تزوج سيدتك، صدق انه قد يفعل اكثر من ذلك في سبيل هيامه : قد يتزوج منك ايضاً ومن كلبها وقطتها. الزواج عقد لا يكلفه شيئاً؛ وهو لا يستخدم أشراكاً كغيره لإصطياد الحسناوات. انه طالب زواج دائم مستعدّ لكل خدمة. لا شيء عنده شديد الحرارة أو البرودة : لا فرق، سيدة كانت ام آنسة، بورجوازية أم فلاحة. إذا عددت لك اسماء كل اللواتي تزوج منهن في أماكن مختلفة لطال بنا الوقت حتى المساء. ما لي أراك متفاجئاً وقد تغيّر لونك عند سماعك هذا الكلام. ليس هذا إلّا رسماً أولياً لشخصيته، ولكي تكتمل صورته فهي تستوجب لمسات أخرى. يكفيك غضب السماء الذي سيوقع به في يوم من الأيام؛ يكفيك أنه من الأجدر بي أن أكون للشيطان من أن أكون له، وأنه يريني الكثير من أعماله البشعة حتى أنني أتمنى أن يضيع في مجاهل الأرض. إلّا أن السيد الكبير والشرير هو امر رهيب. من واجبي الإخلاص له رغم نفوري منه. لقد حلّ في نفسي الخوف منه بدل الإندفاع له فألجم مشاعري، وغالباً جداً ما يرغمني على القبول بما تمقته نفسي. ها هو آتٍ للتنزّه في هذا القصر. لنفترق. إسمع : إني اعترف لك بكل صراحة وقد خرج هذا الإعتراف من فمي بشيء من السرعة ولكن إذا أبلغته شيئاً مما قلته، سأكذّبك بصوتٍ عالٍ.

المشهد الثاني

دون جوان وسغاناريل.

دون جوان : من كان يتكلم معك ؟ يبدو لي أنه يشبه طيب القلب غوسمان، حامل السلاح عند الفير.

سغاناريل : ربّما.

دون جوان : ماذا ؟ انه هو.
سغاناريل : بذاته.
دون جوان : ومنذ متى هو في هذه المدينة ؟
سغاناريل : منذ مساء البارحة.
دون جوان : وما سبب مجيئه ؟
سغاناريل : أظنك تعرف جيداً سبب قلقه.
دون جوان : رحيلنا، دون شك ؟
سغاناريل : لقد حزن الشيخ كثيراً لرحيلنا وكان يسألني عن السبب.
دون جوان : وبما أجبته ؟
سغاناريل : انك لم تقل لي شيئاً.
دون جوان : وانت، ما رأيك في هذا الموضوع ؟
سغاناريل : أظن، من دون الإساءة اليك، أنك بصدد حب جديد.
دون جوان : أتظن ذلك ؟
سغاناريل : أجل.
دون جوان : في الواقع، لست مخطئاً ويجب الإعتراف لك بأن شخصاً آخراً حلّ في نفسي مكان الفير.
سغاناريل : يا الهي ! اعرفك كما أعرف نفسي واعرف ان قلبك الذي هو أكبر زير نساء في العالم يَلُذُّ له التنقّل من علاقة الى آخر ويكره البقاء مكانه.
دون جوان : قل لي : ألا تجدني محقّاً في التصرف على هذا النحو ؟
سغاناريل : آه، يا سيدي !
دون جوان : ماذا ؟ تكلم.
سغاناريل : طبعاً انت محق، إذا كنت تريد ذلك، فنحن لا نستطيع مضايقتك. ولكن، إذا كنت لا تريد ذلك فالأمر يختلف.
دون جوان : حسناً ! لك حرية التكلم والإفصاح لي عن مشاعرك.
سغاناريل : في هذه الحالة، يا سيدي، اقول بكل صراحة اني لا اوافقك الرأي مطلقاً وأجد في غاية البشاعة أن يحب المرء في كل مكان كما تفعل.
دون جوان : ماذا ؟ تريد أن نرتبط بأول مَن تمسك بنا وأن نتخلّى عن العالم

من أجلها وأن لا ننظر الى غيرها ؟ لهو شيء قبيح أن نطمح لشرف أو إخلاص باطل وأن نُدْفَن الى الأبد في علاقة حب ما، وأن نحجب أنفسنا منذ الشباب عن كل الجمالات الأخرى التي قد تشدُّنا اليها ! لا، لا، فالإستقرار يصلح فقط للرجال السخفاء. لكل الحسناوات الحق في أسرنا والأولى التي تحظى بمصادقتنا يجب ألّا تغتصب حقوق الأخريات في الدخول الى قلوبنا. اما أنا، فيسحرني الجمال أينما وجدته واستسلم بسهولة لهذا العنف اللذيذ الذي يجرفنا به. حتى ولو كنت مرتبطاً فالحب الذي أكنّه لحسناء ما لا يلزم نفسي مطلقاً بظلم الحسناوات الأخريات، وابقي عينيّ مفتوحتين لأختبار جدارتهن وأكرِّم كل واحدة منهن، وأعطيها الحق الذي تمليه علينا الطبيعة. ومهما يكن من امر، فأنا لا أستطيع اغلاق قلبي بوجه كل ما أراه جديراً بالحب؛ وما أن يناديه وجه جميل حتى أتنازل عن كل الوجوه الأخرى، حتى لو كنت املك الكثير من الوجوه الجميلة. على كل حال، للهوى الناشئ سحر غامض ولذة الحب كلها تكمن في التغيير. اننا نتذوق حلاوةً كبيرة حين نخضع قلب صبيّة جميلة عن طريق الإطراء والمديح، حين نرى يوماً بعد يوم التقدم البسيط الذي نحرزه، حين نحارب بالآهات والدموع والتنهدات حشمة نفس بريئة يصعب عليها الإستسلام، حين نهزم خطوةً خطوة كل المقاومات التي تصدّنا بها، حين ندحر كل وساوس الضمير التي تصنع منها شرفاً لنفسها، حين نقودها بلطف الى حين نرغب. ولكن، حين نسيطر عليها، يَنْفُد القول والتمني، فتنفد لذة الهوى كلها وننام في هدأته الى أن تأتي فتاة جديدة وتوقظ غرباتنا وتقدم لنا سحراً جديداً فتاناً. إذاً، لا شيء ألذّ من الإنتصار على مقاومة صبيّة جميلة ولديَّ في هذا المضمار، طموح الفاتحين الذين ينتقلون دائماً من نصر الى نصر ولا يسعهم الحد من طموحاتهم. ما من شيء يستطيع لجم رغباتي : أشعر ان لي قلباً يحب الأرض كلها واتمنى كالإسكندر أن تكون هناك عوالم أخرى لكي انشر فيها فتوحاتي العاطفية.

سغاناريل : يا لك من خطيب ؟ يبدو انك حفظت هذا غيباً وتتكلم كما لو كنت تقرأ في كتاب.

دون جوان : ما رأيك ؟

سغاناريل : في الواقع، سأقول ... لا اعرف ماذا اقول. انك تقلب الأشياء على نحو يبدو معه انك على حق، ولكن الحقيقة هي انك مخطئ. كانت لديّ اجمل الأفكار وقد اختلطت في رأسي من جراء كلامك. ولكن، في المرة القادمة سأكتبها لكي أناقشك.

دون جوان : حسناً تفعل.

سغاناريل : ولكن، يا سيدي، هل تأذن لي ايضاً بالقول أن نمط عيشك قد صدمني قليلاً ؟

دون جوان : ماذا ؟ وكيف هو نمط عيشي ؟

سغاناريل : انه جيد جداً. ولكن، مثلاً، كونك تتزوج كل شهر كما تفعل ...

دون جوان : هل هناكْ شيء امتع من هذا ؟

سغاناريل : هذا صحيح. أنما افهم أن هذا ممتع ومسلٍّ جداً وكنت لأتكيّف معه بما يكفي لو لم يكن في الأمر سوءٌ. ولكن يا سيدي، الإستهزاء بسر مقدس و ...

دون جوان : كفى، كفى. هذه قضية بين السماء وبيني وسأجد لها حلّاً دون أن تتعب نفسك.

سغاناريل : في الواقع، يا سيدي، اني اسمع دائماً أن الإستهزاء بالسماء تهوّر وأن نهاية المتهورين وخيمة.

دون جوان : مهلاً، ايها الأحمق، انت تعرف أنني لا أحب مَن يؤنبني ويوبخني.

سغاناريل : انا لا اقصدك انت، معاذ الله. أنت تعرف ماذا تفعل وإذا كنت غير مؤمن فلديك اسبابك. ولكن، هناك بعض العابثين الصغار في العالم، الذين يعيشون عيشة فسق ومجون ولا يعرفون لماذا يكفرون ظنّاً منهم أن هذا يليق بهم. لو كان سيدي مثلهم لكنت واجهته وقلت له بكل وضوح : « اتجرؤ على الإستهزاء بالسماء ؟ ألا تخاف من الإستهزاء بالأشياء الأكثر قداسة كما تفعل ؟ أمن حقك أنت يا دودة الأرض الصغيرة، ايها القزم (اقول هذا للسيد الذي ذكرته)، امن حقك أنت أن تستهزئ بما يَجُلُّهُ كل الناس ؟ ألأنك ذو شأن وتضع على رأسك شعراً مستعاراً حسن التجعيد، وريشاً في قبعتك ولباساً

مذهّباً وشرائط نارية اللون (انا لا اتوجه، في حديثي، اليك بل الى الآخر) تظن أنك اصبحت أكثر حكمةً وعلماً وأن كل شيء مسموح لك وأن ما من أحدٍ يجرؤ على مصارحتك بالحقيقة ؟ اعلمك انا، خادمك، أن السماء ستَقْتَصُّ من الكفار عاجلاً أم آجلاً وأن حياة التهور تُحتّمٌ موتاً متهوِّراً وأن ...

دون جوان : كفى !

سغاناريل : ما الأمر ؟

دون جوان : الأمر هو أن حسناءً يهمُّني أمرها أسرتني بمفاتنها فتبعتها الى هذه المدينة.

سغاناريل : ألا تخاف، يا سيدي، من ذيول قتلك هذا الفارس منذ ستة أشهر.

دون جوان : ولماذا أخاف ؟ ألم اقتله حسب قوانين المبارزة ؟

سغاناريل : اجل وبأحسن ما يكون وليس له الحق في التذمّر.

دون جوان : لقد بُرِّئتُ من هذه القضية.

سغاناريل : اجل ولكن التبرئة هذه ربما لم تطفئ حقد الأهل والأصحاب .

دون جوان : آه ! لننسَ تماماً ما قد يحدث لنا من شر ولنفكر فقط بما قد يأتينا من ملذات. الفتاة التي اتكلم عنها هي أجمل صبيّة مخطوبة في العالم وقد جاء بها الى هنا الشخص الذي سيتزوجها. إني رأيت العاشقين بالصدفة قبل سفرهما بثلاثة أيام أو اربعة. لم ارَ قط شخصين سعيدين ومتحابين الى هذا الحد. وقد تحركت مشاعري عند رؤية شوقهما المتبادل. فأصبتُ بالغيرة. نعم، لم أطق، في البداية، رؤيتهما معاً على هذا الشكل، فأيقظ الغيظ رغباتي ووجدت في نفسي لذة كبيرة في تعكير تفاهمهما وقطع وصالهما المهين لقلبي الحساس. ولكن، لم تثمر جهودي حتى الآن وسألجأ الى الدواء الأخير : زوج المستقبل هذا سيتنزّه اليوم مع عشيقته في البحر. لقد رتبت كل شيء لإشباع نهمي وذلك دون أن أعلمك. لدي قارب ورجال استطيع بواسطتهم وبكل سهولة خطف حسنائي.

سغاناريل : آه ! يا سدي ...

دون جوان : ماذا ؟

سغاناريل : حسن جداً ما يحصل وانت تقول به كما يجب. في هذا العالم، لا شيء أفضل من أن يرضي الإنسان نفسه.
دون جوان : استعد إذن للمجيء معي واهتم بنفسك بإحضار الأسلحة كلها بغية أن ... (هنا يلمح دونا الفير) يا لها من مصادفة مكدِّرة ! لِمَ لَمْ تقل لي، ايها الخائن، انها جاءت بنفسها الى هنا ؟
سغاناريل : لم تطلب مني، يا سيدي.
دون جوان : أمجنونة هي لكي تجيء الى هنا بثيابها الريفية ؟

المشهد الثالث

دونا الفير، دون جوان، سغاناريل

دونا الفير : هل ستتنازل، يا دون جوان، وتكلمني. آآمل على الأقل انك ستتنازل وتدير وجهك نحوي ؟
دون جوان : أقرُّ، يا سيدتي، بأنني فوجئت ولم أكن أنتظر وجودك هنا.
دونا الفير : اجل. واضحٌ انكِ لم تكن تنتظرني. في الحقيقة، لقد فوجئت ولكن ليس بالطريقة التي كنت أتمناها. والطريقة التي تبدو بها متفاجئاً تقنعني تماماً بما كنت ارفض تصديقه. أَعْجَبُ لبساطتي وطيبة قلبي إذ لم اشك بك. لكن الخيانة كانت تؤكدها أمور كثيرة. كنت طيبة القلب بل على قدر كبير من الحماقة حين كنت أخدع نفسي واعمل على تكذيب عينيّ وعقلي. بحثت عن اسباب لتبرير الفتور الذي اصابك واختلقت الكثير من الأعذار لتبرير رحيل سريع كهذا وتبرئتك من الجريمة التي يتهمك بها عقلي. عبثاً كانت تنبِّهني شكوكي كل يوم إذ كنت ارفض صوتها الذي يجعلك مذنباً أُسَرُّ لسماع الكثير من الأوهام التي تصوِّرك بريئاً والتي يوحي بها قلبي. إلّا أن هذا الإستقبال لم يعد يسمح لي بالشك والأجواء التي إستُقْبلتُ فيها تعلمني بأمور أكثر مما كنت اريد معرفته. ومع ذلك، أُسَرُّ جداً لأن اسمع منك اسباب رحيلك. ارجو، يا دون جوان، أن تتكلم، لنرى كيف ستبرر نفسك.

دون جوان : يا سيدتي، سغاناريل هذا يعرف لماذا رحلت.

سغاناريل (**لدون جوان بصوت خافت**) : انا يا سيدي ؟ بالله عليك، انا لا اعرف شيئاً.

دونا الفير : حسناً، تكلم يا سغاناريل. لا يهم ممن اسمع، ولكن تهمني الأسباب.

دون جوان (**مشيراً لسغاناريل بالإقتراب**) : هيا، تكلم مع السيدة.

سغاناريل (**لدون جوان بصوت خافت**) : ماذا تريد أن أقول ؟

دونا الفير : اقترب، بما أنه يريد ذلك، واخبرنا قليلاً عن اسباب رحيلكم السريع هذا.

دون جوان : ألن تجيب ؟

سغاناريل (**لدون جوان بصوت خافت**) : لا شيء عندي للإجابة. انت تسخر من خادمك.

دون جوان : ألا تجيب ؟

سغاناريل : سيدتي ...

دونا الفير : ماذا ؟

سغاناريل (**ملتفتاً نحو سيده**) : سيدي ...

دون جوان (**مهدداً**) : إذا ...

سغاناريل : يا سيدتي، الفاتحون والإسكندر والعوام الأخرى هم سبب رحيلنا. هذا ما يسعني قوله يا سيدي.

دونا الفير : هل ستتفضل، يا دون جوان، وتشرح لنا هذه الأسرار الجميلة ؟

دون جوان : الحقيقة يا سيدتي ...

دونا الفير : آه ! انت لا تحسن الدفاع عن نفسك كرجل بلاط إعتاد هذا النوع من الأمور. إن ارتباكك يثير فيّ الشفقة. لِمَ لا تعتلي جبينك وقاحة نبيل من النبلاء ؟ لِمَ لا تقسم لي بأنك لا زلت تكنّ لي نفس المشاعر ولا زلت تحبُّني بشوق لا مثيل له، وأن لا شيء يبعدك عني سوى الموت ؟ لِمَ لا تقول لي إن شؤوناً بغاية الأهمية اضطرتك الى الرحيل دون اعلامي والبقاء هنا لبعض الوقت رغماً عنك وأنه ما عليّ سوى العودة من حيث أتيت واثقةً بأنك تتشوّق

بالطبع للّحاق بي في اسرع وقت ممكن، وتتألم، من جراء بعدك عني، تألُّمَ الجسد المنفصل عن الروح ؟ هكذا ينبغي أن تدافع عن نفسك وليس بالوقوف منذهلاً كما أراك.

دون جوان : اقرُّ، يا سيدتي، بأني لا املك موهبة المجاملة وقلبي صادق. لن اقول لك اني لا زلت أكنُّ لك نفس المشاعر واتحرَّق للِّحاق بك. رحلت وهربت منك ولكن ليس للأسباب التي تتصورينها، وانما لأسباب ضميرية بحتة ولإعتقادي انني لم اعد استطيع العيش معك لوقت اطول من دون خطيئة. يا سيدتي، لقد ساورتني شكوك فتحت عينيّ على كل ما كنت افعله : خطفتك من الدير للزواج منك وفسخت نذراً يلزمك بطريق آخر، والسماء، كما تعرفين، غيورة جداً في هذه الأمور فتملكني الندم وخفت من عضب السماء ظناً مني أن زواجنا لم يكن سوى زنى متتكرسيجلب لنا مصيبة من العلاء وأنه ينبغي على نسيانك واعطاؤك الفرصة للعودة الى ارتباطاتك الأولى. هل استطيع يا سيدتي، مقاومة فكرة بهذه القداسة وإغضاب السماء في حال الإحتفاظ بك و ... ؟

دونا الفير : يا لك من حقير ! الآن عرفتك حق المعرفة، ولسوء حظي، بعد فوات الأوان. وهذا ما سيجعلني حتماً اعيش في اليأس. ولكن، ثق أن جريمتك لن تبقى بلا عقاب والسماء التي تهزأ منها تعرف كيف تنتقم لي من خيانتك.

دون جوان : السماء، يا سغاناريل !

سغاناريل : حقاً ! أما نحن فلا نبالي بها.

دون جوان : سيدتي ...

دونا الفير : كفى. لا اريد سماع المزيد منك وألوم نفسي لكوني سمعت الكثير. لهو ضعف أن يطيل الإنسان الإصغاء الى اسباب عاره. في هذه المواضيع، القلب النبيل يحزم امره من الكلمة الأولى. لا تنتظر مني العقاب او اللوم والشتائم. لا، لا: لن يكون غضبي على الإطلاق مجرد كلمات لا جدوى منها : اني احتفظ بسعيره للثأر. أكرر لك القول من جديد : ستعاقبك

السماء، ايها الخائن، على إهانتك لي وإذا كنت لا تخشاها، فاخشَ على الأقل غضب امرأة وقد أهينت.

سغاناريل (**على حدة**) : آه، لو كان عنده ضمير !

دون جوان (**بعد وقت قصير من التفكير**) : هيا لنفكر بكيفية تنفيذ مشروعنا الغرامي.

سغاناريل (**على حدة**) : كم هو كريه هذا السيد الذي أراني مضطرّاً لخدمته.

الفصل الثاني

« تدور أحداثه على شاطئ البحر وعلى مقربة من المدينة ».

المشهد الأول

شارلوت وبيارو

شارلوت : لقد جئت في وقتك، يا بيارو.

بيارو : كانا على وشك الغرق، أقسم بذلك.

شارلوت : إذا، عاصفة هذا الصباح البحرية هي التي قلبت قاربهما.

بيارو : تعالي، يا شارلوت، سأخبرك بالضبط كيف حدث هذا، لأنه، كما يقال، انا اول من رآهما. كنت على شاطئ البحر انا ولوقا، وكنا نلهو برمي المدر كل يرمي الرمال على رأس الآخر. ولوقا الضخم كما تعلمين يحب اللهو والمزاح وأنا أحياناً ألهو معه. بينما كنا نلهو، رأيت عن بعد شيئاً يتمايل في الماء ويتقدم نحونا بصورة غير منتظمة. كنت أرى هذا بوضوح وباستمرار. وفجأة أدركت اني لم اعد أرى شيئاً. « قلت : يا لوقا أظن أن هناك رجالاً يسبحون. قال : الرؤية عندك غير واضحة قلت : اقسم لك بحقّ السماء بأن نظري سليم، وأؤكد لك أنهم رجال وقد أوشكوا على ذلك ؟ ــ قال : قال : قطعاً لا، لقد بهرك النور ــ قلت : اتراهن على ذلك ؟ ــ قال : اراهن ــ قلت : هكذا، إذاً، اتريد المراهنة بعشرة فلوس ؟ ــ قال : اجل ولكي اثبت لك ذلك، ها هو مال المراهنة ــ انا لست مجنوناً ابداً ولا

بسكران. فرميت على الأرض بجرأة المتأكد بأربع قطع نقدية وخمسة فلوس مزدوجة كما لو كنت ابتلع كأس نبيذ لأني اعرف كيف اغامر وألقي بنفسي في ساحة المعركة. ومع ذلك، كنت اعرف جيداً ماذا أفعل. لم أكن أحمق ! إذاً، ما أن وضعنا الرهان حتى رأيت الرجلين يومئان لنا بالإسراع لنجدتهما. فكسبت الرهان. « قلت : هيا يا لوقا، انهما يناديانا كما ترى. لنهب لنجدتهما. ـــ قال : لا، فقد جعلاني أخسر ». باختصار، هكذا جرت الأمور. لقد انّبته كثيراً ثم وجدنا انفسنا في قارب؛ ثم وصلنا واخرجناهما من الماء ووضعناهما قرب النار في بيتنا وتعرّيا تماماً بغية تجفيف الثياب. ثم اتى اثنان فيما بعد كانا قد نجيا بأنفسهما. ثم وصلت ماتورين ونظروا اليها نظرة اعجاب. هكذا بالضبط جرت الأمور يا شارلوت.

شارلوت : ألم تقل لي يا بيارو أن هناك واحداً منهم أكثر جمالاً من الآخرين ؟

بيارو : بلى، وهو سيدهم. انه، حتماً، أحد كبار الأسياد فالذهب يغطي ثيابه من رأسه حتى أخمص قدميه واولئك الذين يخدمونه هم ايضاً اسياد. على كل حال، وإن يكن سيداً كبيراً : ثقي بأنه كان قد غرق لو لم أكن هناك.

شارلوت : عجباً.

بيارو : اقسم لك : لولانا لكان انتهى.

شارلوت : ألا يزال عارياً عندك يا بيارو ؟

بيارو : لا، لقد ألبسوه أمامنا. يا إلهي، لم أرَ أحداً يلبس ثياباً مثله. كم من اشياء معقّدة يرتدي اولئك الأسياد، رجال البلاط ! أوشكت أن أضيع بسبب العجب والدهشة حين رأيت ذلك. عجباً، يا شارلوت، لهم شعر لا يلتصق ابداً برؤوسهم وهم يضعونه، بعد ارتداء ملابسهم، كقبعة كبيرة من الألياف. لهم قمصان تسعنا أنا وانت أحياءً كما نحن. وبدل السراويل، يضعون « وَزْرَةً » عريضة « من هنا الى آخر الدنيا »، وبَدَلَ الأصدة صُدَيْرِيّةَ لا تصل حتى الى المعدة؛ وبَدَل اليَاقَة محرمة عنق كبيرة مُخَرّمَة بالإضافة الى اربع أردان من القماش الأبيض متدلّية فوق المعدة. ولهم ايضاً صديريّات في أواخر أذرعتهم، وعلى سَاقَيْ كل واحد منهم قماع كبيرة مخرّمة والكثير من الشرائط كما لو

أنها « فَبْرَكَةٌ » حقيقيّة. حتى احذيتهم تَعُجُّ بالشرائط الملونة في كل اطرافها وهي مرصوفة بصورة معقدة، قد أكسر عنقي لو كان عليّ رصفها.

شارلوت : صدقني يا بيارو، يجب أن أذهب لأرى هذا.

بيارو : اسمعيني قليلاً قبل أن تذهبي، يا شارلوت، فلديّ شيء آخر اقوله لك.

شارلوت : قل، ما هو ؟

بيارو : كما ترين يا شارلوت، يجب، كما يقال، أن أفرغ قلبي. احبك وسنتزوج وأنت تعرفين هذا جيداً، ولكني لست راضٍ عنك البتة.

شارلوت : ماذا ؟ وما الأمر ؟

بيارو : الأمر، بصراحة، هو أنك تحزنيني.

شارلوت : وكيف ذلك ؟

بيارو : انت لا تحبّينني مطلقاً.

شارلوت : آه، آه، أهذا هو الأمر؟

بيارو : أجل، وهذا كافٍ.

شارلوت : يا إلهي، أنت تردد علي القول ذاته، يا بيارو.

بيارو : اردد القول نفسه لأن الأمر هو نفسه دائماً ولو لم يكن كذلك لما رددت عليك نفس القول دائماً.

شارلوت : ولكن، ماذا ينقصك ؟ ماذا تريد ؟

بيارو : تباً لك ؟ اريدك أن تحبيني.

شارلوت : ألا أحبك ؟

بيارو : كلا، أنت لا تحبينني، ومع ذلك، افعل كل ما استطيع لهذه الغاية : اني اشتري لك، من دون تذمُّر، شرائط من كل تجار الأقمشة الذين يمرّون من هنا، وارهق نفسي في إحضار العصافير لك. وأجعل عازفي الأرغل يعزفون في عيد ميلادك. وكل هذا وكأنني أضرب رأسي بالجدار. أترين ليس من اللياقة ولا الشرف أن لا نحب من يحبّوننا.

شارلوت : ولكن، أنا أحبك أيضاً.

بيارو : اجل، ويا لها من طريقة !

شارلوت : ماذا تريد أن نفعل ؟

بيارو : اريد أن نفعل ما يفعل عندما نحب كما يجب.

شارلوت : ألا أحبك كما يجب ؟

بيارو : كلا، لأنه لو كنت تحبينني كما يجب لكان ظهر حبك لي. فالمرء يقوم بالكثير من الحركات والتصرفات الصغيرة تجاه الشخص الذي يحبُّهُ من كل قلبه. انظري الى توماس الضخمة. ألا ترين كم هي مولعة حتى الحماقة برو.بان الشاب. فهي تحوم دائماً حوله وتضايقه ولا تدعه يرتاح ابداً. وتلهو معه وتضربه على رأسه. في المدة الأخيرة، كان جالساً على كرسي فسحبته من تحته فوقع مستلقياً على الأرض. تبّاً ! هكذا يكون المحبّون. انت كقطعة خشب، لا تقولين لي ولو كلمة واحدة. ولو مررت من امامك عشرين مرة فأنت لا تضربينني ولو ضربة صغيرة ولا تقولين لي ولو كلمة واحدة. يا لحظي العاثر ! هذا أمر سيء وأنت في غاية البرودة تجاه الغير.

شارلوت : ماذا تريد أن أفعل ؟ هكذا طبعي ولا استطيع تغييره.

بيارو : القضية ليست قضية أطباع. عندما نحب شخصاً نقوم تجاهه بحركات وتصرفات صغيرة ذات معنى.

شارلوت : على كل حال، أحبك على قدر ما استطيع وإذا كان لا يعجبك هذا فَلَكَ أن تحب فتاة أخرى.

بيارو : هذا ما كنت أظن. تبّاً، أكنت تقولين لي هذا الكلام لو كنت تحبينني ؟

شارلوت : لماذا تضايقني الى هذا الحد ؟

بيارو : تبّاً ! ماذا فعلت ؟ لا أطلب منك سوى القليل من الحب.

شارلوت : حسناً ! دع الأمور تأخذ مجراها ولا تضغط عليّ قط بهذا الشكل. ربما يأتي الحب فجأةً دون التفكير به.

بيارو (**فاتحاً كفه**) : إذاً، ضعي يدك هنا، يا شارلوت.

شارلوت : حسناً ! هذا جيد.

بيارو : عديني إذاً بأنك ستزيدين من حبك لي.

شارلوت : سأبذل ما في وسعي ولكن يجب أن يحدث هذا عرضاً ودون قصد. أهذا هو السيد يا بيارو ؟

بيارو : أجل.
شارلوت : يا إلهي، كم هو جميل ! من المؤسف حقاً أن يموت غرقاً.
بيارو : سأعود بعد قليل. سأشرب كأساً لكي استعيد قواي بعد التعب الذي عانيت.

المشهد الثاني

دون جوان، سغاناريل وشارلوت (في آخر المسرح)

دون جوان : لقد أضعنا فرصتنا، يا سغاناريل، وتلك الزوبعة المفاجئة قضت على قاربنا ومشروعنا. ولكن، في الحقيقة، جمال الفلاحة التي تركناها منذ قليل، يعوّض عن هذه المصيبة إذ وجدت فيها مفاتن تُجنِّب نفسي كل الحزن الناجم عن فشل مشروعنا. يجب ألّا يفلت مني هذا القلب، وقد هيأت الأمور لكي أتألم طويلاً بالتأوه والتنهُّد.
سغاناريل : يا سيدي، اقرُّ بأنك تذهلني. ولقد افلتنا لتوِّنا من قبضة الموت، وبَدَلَ أن تشكر السماء على الرحمة التي أنزلتها علينا، فأنت تعمل من جديد، على استحضار غضبها بنزواتك المعتادة وعلاقاتك المجر ... (المجرمة) (دون جوان مهدداً). كفى، ايها المغرور، انت تجهل ما تقول وسيدك يعرف ماذا يفعل. هيا ...
دون جوان (بعد أن رأى شارلوت) : آه ! من أين اتت هذه الفلاحة الأخرى يا سغاناريل ؟ أرأيت أجمل منها ؟ قل لي، ألا يساوي جمالها جمال الأخرى ؟
سغاناريل : بالطبع. (على حدة) هذه حيلة جديدة.
دون جوان (لشارلوت) : ايتها الحلوة، ما هذه الصدفة الممتعة ؟! أتوجد حسناوات مثلك في هذه الأماكن الريفيّة بين هذه الأشجار والصخور ؟
شارلوت : كما ترى يا سيدي.
دون جوان : هل أنت من هذه القرية ؟
شارلوت : اجل، يا سيدي.

دون جوان : أمقيمة أنت فيها ؟

شارلوت : أجل، يا سيدي.

دون جوان : ما اسمك ؟

شارلوت : خادمتك، شارلوت.

دون جوان : يا لها من صبيّة جميلة ! وعيناها، كم هما ساحرتان.

شارلوت : انك تخجلني، يا سيدي.

دون جوان : آه ! لا تخجلي قط من سماع الحقيقة. ما رأيك في هذا، يا سغاناريل ؟ أيمكننا أن نرى امتع من هذا ؟ أتسمحين أن تستديري قليلاً ؟ يا لها من قامة جميلة ! بالله عليك، ارفعي رأسك قليلاً : يا له من وجه ظريف ! افتحي عينيك وسعهما : كم هما جميلتان ! ارجوك، دعيني ارى اسنانك : كم هي ساحرة، هاتان الشفتان كم هما شهِّيتان ! أنا مسرور، لم أرَ قط فتاة بهذا الجمال.

شارلوت : قد يَسُرك، يا سيدي، أن تقول هذا الكلام ولكني لا أعرف إذا ما كنت تسخر مني.

دون جوان : أسخر منك ؟ معاذ الله. حبي لك أكبر من أن افعل هذا. أنا أكلمك من أعماق قلبي.

شارلوت : إذا كان الأمر كذلك، فأنا أشكرك.

دون جوان : لا، لا تشكريني ابداً. لست مدينة لي على الإطلاق في كل ما اقوله، بل لجمالك.

شارلوت : يا سيدي، ما قلت لي مؤثر وبليغ جداً بالنسبة لواحدة مثلي لا تملك القدرة على الإجابة.

دون جوان : يا سغاناريل، انظر قليلاً الى يديها.

شارلوت : لا، يا سيدي، انهما سوداوان مثل ...

دون جوان : ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ انهما أجمل يدين في العالم. ارجوك، اقبلي بأن اقبلهما.

شارلوت : هذا شرف كبير لي، يا سيدي. لو عرفت منذ قليل ما سيحصل لكنت غسلتهما بالصابون.

دون جوان : قولي لي، يا شارلوت، يا حلوتي، أنت بلا ريب عزباء.
شارلوت : نعم، يا سيدي. إلّا اني سأتزوج من بيارو ابن جارتي سيمونيت.
دون جوان : ماذا ؟ أتكون إمرأة مثلك زوجة فلاح بسيط ؟ لا، لا، هذا تدنيس للجمال. انت لم تخلقي لتقيمي في قرية. أنت تستحقّين، دون شك، مصيراً أفضل، والسماء التي تعرف هذا جيداً، قادتني الى هنا لأمنع هذا الزواج وأنصف مفاتنك. يا شارلوت، يا حلوتي، اني احبك من كل قلبي وقرار انتزاعك من هذا المكان البائس وجعلك في المكان الذي تستحقّين أن تكوني فيه، هو رهن بك. هذا الحب سريع جداً دون شك ولكن، ما العمل ؟ جمالك الفتان هو السبب يا شارلوت. قد يحب المرء في لحظات كما فعلت وقد يتطلّب حبٌ آخر ستة أشهر لتحقيقه.
شارلوت : في الحقيقة، يا سيدي، لا اعرف بماذا أجيب حين تتكلم. إن ما تقوله يسرُّني واود من كل قلبي أن اصدقك ولكن يقولون لي دائماً أن لا اصدِّق الأسياد ورجال البلاط لأنهم خداعون لا يفكِّرون إلّا بخداع الفتيات.
دون جوان : لست من اولئك الناس.
سغاناريل (على حدة) : انه لا يقوى على ذلك.
شارلوت : وكما تعرف، يا سيدي، لا راحة ولا قرار لي إذا خُدعت. أنا فلاحة مسكينة أعتبر الشرف غايةً في الأهمية وافضل الموت على الخزي والعار.
دون جوان : هل تكون نفسي شريرة الى حد إغواء فتاة مثلك ؟ أأكون جباناً الى درجة اغوائك ؟ لا، لا، إني املك من الضمير ما يمنعني من القيام بهذا. أحبك، يا شارلوت وغايتي الخير والشرف، ولكي أبيِّن لك حقيقة ما اقول إعلمي أن هدفي الوحيد هو الزواج منك. أتريدين برهاناً أكبر ؟ أنا مستعد لذلك حين تشائين واجعل من هذا الرجل الموجود هنا شاهداً على الوعد الذي قطعته لك.
سغاناريل : لا، لا، لا تجزعي ابداً فسيتزوج منك طالما هذه هي رغبتك.
دون جوان : آه، يا شارلوت، انت لا تعرفينني بعد كما أرى، وتسيئين إليّ كثيراً حين تحكمين عليّ من خلال الآخرين. إذا كان هناك خونة في العالم

واناس غايتهم اغواء الفتيات، فلا تحسبيني منهم ولا تطعنيني في صدق وعدي. كما أنه ينبغي عليك الركون لسطوة جمالك في كل أمر. حين تكون المرأة جميلة مثلك، تكون بمنأى عن كل انواع الخوف. صدقيني، انت لا تبدين كشخص مخدوع. وأنا، اقر لك بأنني سأمزق قلبي شر تمزيق إذا ما ساورتني فكرة خيانتك.

شارلوت : يا إلهي ! لا أعرف إذا كنت صادقاً ام لا، إلّا أنك تجعلني أصدّق كلامك.

دون جوان : حين تصديقينني، ستنصفينني حتماً. إني اكرر لك الوعد الذي قطعته. ألا تقبلين به ؟ ألا تقبلين بأن تكوني زوجة لي ؟

شارلوت : بلى، شرط أن ترضى عمتي.

دون جوان (**فاتحاً يده**) : إذا ضعي يدك هنا.

شارلوت : ولكن، ارجوك، يا سيدي، لا تخدعني فقد يعذبك ضميرك لأني افعل ما تريد عن حسن نيّة.

دون جوان : ماذا ؟ يبدو انك لا زلت تشكين بصدقي ! اتريدين أن أقطع لك عهوداً رهيبة ؟ السماء ...

شارلوت : يا إلهي ! لا تقسم، لقد صدقتك.

دون جوان : أعطني اذاً قبلة صغيرة كعربون لوعدك.

شارلوت : أوّاه، يا سيدي، ارجوك، انتظر حتى نتزوج فأقبلك قدر ما تريد.

دون جوان : حسناً ! يا شارلوت، يا حلوتي، انا لا اريد إلّا ما تريدين. اتركي لي فقط يدك واقبلي بأن اعبر لها بالقبلات عن النشوة التي أشعر بها.

المشهد الثالث

دونجوان، سغاناريل، بيارو، شارلوت

بيارو (يدفع بدون جوان الى الخلف ويقف بينه وبين شارلوت) : بالله عليك ألجم نفسك يا سيدي. انك تنفعل كثيراً وقد تصاب بذات الجنب.

دون جوان (يدفع بيارو بقساوة) : من أين جاء هذا الوقح ؟

بيارو (يتوسطهما من جديد) : قلت لك، استقم ولا تداعب خطيبتي.

دون جوان (مستمرّاً في دفعه) : يا لهذا التشويش والفرفرة.

بيارو : تباً ! أيجوز أن تدفع بالناس هكذا ؟

شارلوت (مُمْسِكةً بذراع بيارو) : دعه يفعل هو ايضاً، يا بيارو.

بيارو : كيف ؟ أدعه يفعل ؟ لا اريد.

دون جوان : هكذا إذاً !

بيارو : تبّاً لك ! آلأنك سيد، يحقُّ لك مداعبة نسائنا على مرأى منا ؟ إذهب وداعب زوجتك.

دون جوان : ها، ها ؟

بيارو : ها، ها. (يصفعه دون جوان)، تبّاً، لك ! لا تضربني. (صفعة ثانية) تباً، تباً لك ثم تبّاً لك ! من غير اللائق أن نضرب الناس. ابهذه الطريقة تكافئ على انقاذك من الغرق ؟

شارلوت : لا تغضب يا بيارو.

بيارو : بل سأغضب. انت حقيرة لأنك تسمحين له بمداعبتك.

شارلوت : آ ! الأمر ليس كما تظن يا بيارو. هذا السيد يريد الزواج مني. فلمَ الغضب ؟

بيارو : كيف ! تبّاً لك ! انت خطيبتي.

شارلوت : لا يهم يا بيارو. إذا كنت تحبني فعلاً، يجب أن تكون مسروراً لأني سأصبح سيدة.

بيارو : لا، لا، افضل لك الموت على أن تصبحي لغيري.

شارلوت : هيا، هيا يا بيارو، عليك أن تتجنب المخاطر إذا اصبحت سيدة،

سأجعلك تربح بعض الأشياء وستحضر لنا الزبدة والجبنة.

بيارو : لا لا ! لن افعل هذا ابداً حتى ولو دفعت لي أجري مرتين. هل تصدقين ما يقوله لك ؟ تبّاً لو كنت اعرف ما سيحصل لكنت تركته في الماء وضربته بالمجذاف على رأسه.

دون جوان (**يقترب من بيارو لضربه**) : ماذا تقول ؟

بيارو (**مختبئاً وراء شارلوت**) : نعم ! أنا لا أخاف من أحد.

دون جوان (**وهو يتقدم نحو بيارو**) : سأريك.

بيارو (**ينتقل الى الجانب الآخر وراء شارلوت**) : أنا لا يهمني شيء.

دون جوان (**راكضاً وراء بيارو**) : سترى.

بيارو (**من جديد وراء شارلوت**) : رأيت الكثيرين من أمثالك.

دون جوان : هكذا إذن !

سغاناريل : ايه، يا سيدي، اترك هذا البائس المسكين. فضربه حرامٌ (متوجهاً نحو بيارو وواقفاً بينه وبين دون جوان). اسمع، ايها الصبي المسكين، انسحب من هنا، ولا تقل له شيئاً.

بيارو (**مارّاً من أمام سغاناريل وقائلاً باعتزاز لدون جوان**) : بل سأقول.

دون جوان (**يرفع يده ليصفع بيارو؛ ولكن هذا الأخير يحني رأسه فتكون الصفعة من نصيب سغاناريل**)

سغاناريل (**لبيارو الذي تجنّب الصفعة**) : ويحك ايها النذل !

دون جوان (**لسغاناريل**) : هذا جزاء إحسانك.

بيارو : تبّاً لكم ! سأخبر عمتها عن تصرفها.

دون جوان (**لشارلوت**) : وأخيراً سأكون اسعد الناس ولن اتخلى عن سعادتي مقابل اي شيء في العالم. كم من الملذات تنتظرنا حين تصبحين زوجتي و ...

المشهد الرابع

دون جوان، سغاناريل، شارلوت وماتورين.

السيد ديمونش (**يلمح ماتورين**) : واه ! واه !

ماتورين (**لدون جوان**) : ماذا تفعل هنا، يا سيدي، مع شارلوت ؟ هل تكلمها عن الحب ؟

دون جوان (**لماتورين بصوت خافت**) : كلا، بل على العكس، هي التي تظهر لي رغبتها في أن تكون زوجتي وكنت اجيبها بأني مرتبط بك.

شارلوت (**لدون جوان**) : ماذا تريد منك ماتورين ؟

دون جوان (**لشارلوت بصوت خافت**) : انها تغار حين تراني اتكلم معك وتريد أن أتزوجها، ولكني قلت لها أنني اريدك انت.

ماتورين : ماذا يا شارلوت ... ؟

دون جوان (**لماتورين بصوت خافت**) : لا فائدة من كل ما ستقولين لها، فهي مقتنعة بذلك.

شارلوت : كيف إذن ! يا ماتورين ...

دون جوان (**لشارلوت بصوت خافت**) : لا جدوى من كلامك معها، فلن تستطيعي إنتزاع هذه الفكرة الخياليّة منها.

ماتورين : هل ... ؟

دون جوان (**لماتورين بصوت خافت**) : لا سبيل لإقناعها.

شارلوت : اريد ...

دون جوان (**لشارلوت بصوت خافت**) : عنيدةٌ هي، ما هذا العناد !

ماتورين : حقاً ...

دون جوان (**لماتورين بصوت خافت**) : لا تقولي لها شيئاً فهي مجنونة.

شارلوت : اعتقد ...

دون جوان (**لشارلوت بصوت خافت**) : دعك منها فهي مجنونة.

ماتورين : لا، لا، يجب أن أكلمها.

شارلوت : أريد معرفة أسبابها.

ماتورين : ماذا .. ؟
دون جوان (**لماتورين بصوت خافت**) : اراهن على أنها ستقول لك انني وعدتها بالزواج.
شارلوت : انا ...
دون جوان (**لشارلوت بصوت خافت**) : اراهن على أنها ستصرُّ على انني وعدتها بالزواج.
ماتورين : مهلك، يا شارلوت إن الضرر بالآخرين والحلول مكانهم أمر سيئ.
سغاناريل : ليس من العدل أن تغاري مني إذْ اتكلم مع سيدي.
ماتورين : لقد رآني سيدي قبلك.
شارلوت : إذا رآك قبلي فقد رآني بعدك ووعدني بالزواج.
دون جوان (**لماتورين بصوت خافت**) : ما رأيك ؟ ألم اقل لك ؟
ماتورين (**لشارلوت**) : دعيني منك، لقد وعدني انا بالزواج وليس انت.
دون جوان (**لشارلوت بصوت خافت**) : ألم اقل لكِ ؟
شارلوت : قولي هذا لغيري، ارجوك. لقد وعدني انا.
ماتورين : أتسخرين مني. بل وعدني انا.
شارلوت : ها هو قادر على القول إذا لم أكن على حق.
ماتورين : وهو قادر على نفي ما أقول إذا كنت مخطئة.
شارلوت : أصحيحٌ، يا سيدي، انك وعدتها بالزواج ؟
دون جوان (**لشارلوت بصوت خافت**) : انت تسخرين مني.
ماتورين : أصحيح، يا سيدي، أنك وعدتها بالزواج ؟
دون جوان (**لماتورين بصوت خافت**) : كيف يمكنك التفكير بهذا ؟
شارلوت : انها تصرُّ على ذلك.
دون جوان (**لشارلوت بصوت خافت**) : دعيها تفعل.
ماتورين : انت شاهد على ما تقول.
دون جوان (**لماتورين بصوت خافت**) : دعيها تَقُلْ.
شارلوت : لا، لا، يجب علي معرفة الحقيقة.
ماتورين : يجب البتُّ في هذه المسألة.

شارلوت : اجل، يا ماتورين، اريد منه أن يظهر لك غباءك.
ماتورين : وأنا، يا شارلوت، اريد منه أن يفحمك.
شارلوت : أرجو يا سيدي، حل هذه المشكلة.
ماتورين : وفِّق بيننا، يا سيدي.
شارلوت (**لماتورين**) : سترين.
ماتورين (**لشارلوت**) : بل أنت سترين بنفسك.
شارلوت (**لدون جوان**) : قل.
ماتورين (**لدون جوان**) : تكلم.
دون جوان (**للإثنتين، وهو مرتبك**) : ماذا تريدان أن أقول ؟ أنتما تصرَّان على انني وعدتكما بالزواج. ألا تعرف كلٌّ منكما الأمر على حقيقته دون الحاجة الى الإستفاضة في الشرح ؟ لماذا تجبرانني على التكرار في هذا الموضوع ؟ ألا تملك التي وعدتها بالزواج ما يجعلها تسخر من الأخرى ؟ وهل عليها أن تتعب نفسها الى حين ابرُّ بوعدي ؟ لا فائدة على الإطلاق من الكلام كله، يجب العمل لا القول. والنتائج افضل من الكلام. لذا، لا شيء عندي سوى هذا للتوفيق بينكما، وسوف نرى، حين اتزوج، من منكما حازت على قلبي. (لماتورين بصوت خافت) دعيها تصدِّق ما تريد. (لشارلوت بصوت خافت) دعيها تعتزُّ بنفسها كما تريد. (لماتورين بصوت خافت) اعبدك. (لشارلوت بصوت خافت) أنا لك بكلّيتي. (لماتورين بصوت خافت) كل الوجوه تبدو قبيحة امامك (لشارلوت بصوت خافت) حين رأيتك لم أعد أطيق الآخرين. لديّ ما افعله. سأعود وألتقي بكما في غضون ربع ساعة.

(يخرج).

شارلوت (**لماتورين**) : أنا من يحب.
ماتورين (**لشارلوت**) : أنا التي سيتزوجها.
سغاناريل : يا لكما من مسكينتين ! انا اشفق على براءتكما ولا اطيق أن أراكما تقعان في المصيبة. صدِّقاني : لا تُخدعا بالروايات التي رواها لكما وابقيا في قريتكما.
دون جوان (**يعود**) : اريد أن أعرف لماذا لم يتبعني سغاناريل.

سغاناريل (**للفتاتين**) : سيدي خائن وهدفه اغواؤكما، وقد اغوى غيركما. فهو أكبر مزواج بين البشر ... (يرى دون جوان) هذا غلط. قولا لكل من يقول لكما أنه يكذب. سيدي ليس مزواجاً وليس خائناً وهدفه ليس اغواءكما ولم يغوِ غيركما قط.

دون جوان (**ينظر الى سغاناريل نظرة شك**) : اجل.

سغاناريل : يا سيدي، بما أن هذا العالم مليء بالنمّامين كنت استدرك الأمور واقول لهما ان لا تصدّقا من يسيء بالكلام عنك وأن لا تتأخّرا في تكذيبه.

دون جوان : سغاناريل !

سغاناريل (**لشارلوت وماتورين**) : اجل، سيدي رجل نبل وشريف وانا كفيل بذلك.

دون جوان : آه !

سغاناريل : يا للعالم وما فيه من الوقاحة !

المشهد الخامس

دون جوان، السيّاف، شارلوت، ماتورين، سغاناريل

السيّاف (**لدون جوان بصوت خافت**) : يا سيدي، جئت أحذِّرك : عليك مغادرة هذا المكان.

دون جوان : كيف ؟

السيّاف : هناك إثنا عشر فارساً يبحثون عنك وسيصلون الى هنا بين لحظة وأخرى. لا أعرف كيف استطاعوا إقتفاء اثرك ولقد علمت بهذا الخبر من فلاح إستجوبوه بعد أن أعطوه مواصفاتك. القضية بغاية الخطورة والعجل ومن الأفضل أن تغادر في اقرب وقت ممكن.

دون جوان (**لشارلوت ماتورين**) : إن قضية ملحة تجبرني على الرحيل من هنا؛ ولكن ارجوكما أن تتذكرا الوعد الذي قطعته لكما وأن تثقا بأن أخباري ستَرِدُكُما قبل مساء الغد. (شارلوت وماتورين تبتعدان). وبما أن اللعبة غير

متكافئة، علينا استعمال الحيلة وتجنُّب المصيبة التي تلاحقنا بلباقة. اريد، يا سغاناريل أن تلبس ثيابي وانا ...

سغاناريل : أتسخر مني يا سيدي، قد أتعرَّض للقتل إذا ...

دون جوان : هيا، بسرعة، هذا شرف كبير لك : سعيدٌ جداً هو الخادم الذي يموت من أجل سيده.

سغاناريل : أشكرك على هذا الشرف. (وحده) أيتها السماء، بما أن الأمر يتعلق بالموت، أنعمي عليَّ بأن يُظن بأني شخص آخر.

الفصل الثالث

مشهد غابة قريبة من البحر وفي جوار المدينة

المشهد الأول

دون جوان (في لباس ريفي) : وسغاناريل (متنكّراً في زيّ طبيب)

سغاناريل : حقّاً يا سيدي، إعترف بأنني كنت على حق : ها نحن متنكّران بشكل رائع. لم تكن خطتك مناسبة على الإطلاق. نحن هكذا افضل مما كنت ستفعل.

دون جوان : هذا صحيح وأنت في أحسن حالاتك. لا أعرف من أين أتيت بهذا الزي المضحك ؟

سغاناريل : كيف ؟ هذه ثياب طبيب شيخ كانت مرهونة في المكان الذي اخذتها منه وقد دفعت مبلغاً من المال للحصول عليها. ولكن، أتعرف، يا سيدي أنها تجعلني ذا شأن وأن الناس الذين اصادفهم يحيّونني ويأتي بعضهم لإستشارتي بصفتي رجل علم ضليع.

دون جوان : وكيف هذا ؟

سغاناريل : خمسة أو ستة من أهل الريف قدموا لإستشارتي حول مختلف الأمراض عندما رَأوني مارّاً بقربهم.

دون جوان : وهل أجبتهم بأنك لا تفهم منها شيئاً ؟

سغاناريل : لا، لا بل اردت المحافظة على كرامة ثيابي فعلّلتُ لهم الألم ووصفت دواءً لكل واحد منهم.

دون جوان : وما الأدوية التي وصفتها لهم ؟

سغاناريل : في الواقع، يا سيدي، لقد وصفت لهم ما قدِّر لي، فجاءت ردودي وتعليماتي إعتباطية. وكم يكون الأمر طريفاً لو شُفِيَ المرضى وجاؤوا ليشكروني على شفائهم.

دون جوان : ولِمَ لا ؟ لمَ لا تكون لك نفس الإمتيازات التي يملكها الأطبّاء الآخرون ؟ انهم لا يشفون المرضى بطريقة افضل وما طبُّهم كله إلّا مظاهر خداعة. فهم لا يفعلون شيئاً سوى الإفتخار بنجاحهم السعيد وبوسعك الإستفادة مثلهم من فرح المريض إذ تعزو لدوائك كل ما قد تفعله الصدفة وقوى الطبيعة.

سغاناريل : كيف يا سيدي ؟ هل انت جاحدٌ في الطب أيضاً ؟

دون جوان : وما هو الطب ؟ أليس أحد الأخطاء الكبرى الشائعة بين الناس.

سغاناريل : ماذا ؟ ألا تؤمن بفعالية الخردل واللبّ المسهِّل والنبيذ المقيء ؟

دون جوان : ولماذا تريد أن أؤمن بها ؟

سغاناريل : لك نفس كافر. ومع ذلك، ألا ترى، منذ بعض الوقت، أن النبيذ المقيّء ذاع صيتُهُ في العالم ؟ معجزاته جعلت الأكثر كفراً يرتدون منذ اقل من ثلاثة أسابيع، شهِدْتُ تأثيره الرائع.

دون جوان : وما هو هذا التأثير الرائع ؟

سغاناريل : كان هناك رجل يحتضر منذ ستة أيام، وكانوا لا يعرفون ماذا يفعلون إذ أن الأدوية كلها كانت عديمة النفع. فارتأوا أخيراً أن يعطوه منه.

دون جوان : فأفلت من قبضة الموت، اليس كذلك ؟

سغاناريل : لا، لقد مات.

دون جوان : التأثير رائع.

سغاناريل : كيف ؟ كان يحتضر منذ ستة أيام بأكملها فأهلكه بضربة واحدة وهل هنالك شيء أكثر فعاليّة منه ؟

دون جوان : أصبت.

سغاناريل : لندع الآن الطب الذي لا تؤمن به ولنتحدث عن أمور أخرى لأن الثياب هذه تجعلني صاحب حجة، وأشعر بالقدرة على مجادلتك. وكما

تعرف، أنت تأذن لي بالمجادلة ولا تمنع عني سوى التأنيب.

دون جوان : هكذا إذاً ؟

سغاناريل : اريد أن أعرف قليلاً افكارك على حقيقتها. ايمكنك عدم الإيمان بالسماء على الإطلاق ؟

دون جوان : دعنا من هذا.

سغاناريل : هذا يعني « أجل ». وبجهنم ؟

دون جوان : ايه !

سغاناريل : كذلك الأمر. وبالشيطان، إذا سمحت ؟

دون جوان : اجل، اجل.

سغاناريل : ألا تؤمن بالحياة الآخرة ؟

دون جوان : آه، آه، آه !

سغاناريل : هذا رجل سيصعب عليّ تقويمه. قل لي، ما رأيك بالراهب الفظ[1] ؟ ايه ؟

دون جوان : ملعون هذا المغرور !

سغاناريل : هذا ما لا استطيع تحمله لأن لا شيء أكثر واقعيّةً منه وأنا اراهن عليه. ولكن، على الإنسان أن يؤمن بشيء في هذه الدنيا. فبماذا تؤمن انت ؟

دون جوان : بماذا أؤمن ؟

سغاناريل : نعم.

دون جوان : أؤمن أن اثنين زائد اثنين يساويان اربعة يا سغاناريل، واربعة زائد اربعة تساوي ثمانية.

سغاناريل : يا له من ايمان ! دينك اذاً هو الحساب كما أرى. يجب الإقرار بأن رؤوس الناس مصابة بجنون غريب وأن الإنسان يصبح أقل تعقُّلاً في أكثر الأحيان حين يدرس كثيراً. أما أنا، يا سيدي، فمن حسن حظي، أني لم أتعلم مثلك قط، ولا أحد يستطيع الإفتخار بأنه قد علمني شيئاً، ولكن من خلال القليل الذي أملكه من الحس والقدرة من كل الكتب وأدرك جيداً أن هذا

(١) « الراهب الفظ » هو، في اعتقاد الشعب، جن يجوب الشوارع قبل عيد الميلاد ويطلق صرخات مخيفة.

العالم الذي نراه هو فِطْر نبت من تلقاء نفسه في ليلة واحدة. اريد أن أسألك عن خالق هذه الأشجار وهذه الصخور وهذه الأرض وهذه السماء في العُلى. فإذا كانت هذه الأخيرة قد صنعت نفسها بنفسها فأنت، مثلاً، موجود؛ هل صنعت نفسك بنفسك ؟ ولكي تكون موجوداً هنا ألم يكن من الضروري أن يجعل ابوك امك حبلى بك ؟ ابوسعك رؤية كل تلك الإختراعات التي يتركب منها الإنسان دون التعجب من كيفيّة تنظيمها ؟ هذه الأعصاب وهذه العظام وهذه الشرايين، وهذه ... وهاتين الرئتين، وهذا القلب، وهذه الكبد، وكل المركّبات الأخرى الموجودة والتي ... لا، لا، لمَ لا تقاطعني إذا شئت. أنا لا أعرف الجدل إذا لم أقاطع. أنت تصمت عمداً وبخبث وتدعني أتكلم.

دون جوان : اني انتظر أن تنتهي من حديثك.

سغاناريل : على الرغم مما قد تقوله، هناك شيء رائع في الإنسان، لا يستطيع العلماء تعليله. أليس رائعاً وجودي هنا ووجود شيء ما في رأسي يفكّر بألف موضوع مختلف في لحظة واحدة ويفعل بجسدي كل ما يبغيه ؟ اصفّق، ارفع ذراعي، انظر الى السماء، أحني رأسي، أحرِّك رجليّ، أذهب يميناً ويساراً وإلى الأمام والى الخلف وأستدير (وبينما هو يستدير، يقع سغاناريل على الأرض).

دون جوان : حسناً ! ها إن برهانك قد فشل.

سغاناريل : تباً لي ! من الحماقة أن الهو في مجادلتك. آمن بما تشاء فَيَهُمُّني جداً أن تهلك نفسك !

دون جوان : ولكننا اضعنا طريقنا بينما كنا نتجادل. تبّاً لك ! اسأل ذاك الرجل هناك.

سغاناريل : إيه؛ أنت يا رجل، انت ايها الصديق، ايها الصديق، أتأذن بكلمة ؟

المشهد الثاني

دون جوان، سغاناريل، ورجل فقير.

سغاناريل : أتدلنا على الطريق المؤدي الى المدينة ؟

الفقير : ما عليكما سوى إتباع هذه الطريق، ايها السيدان، والإلتفاف يميناً عند وصولكما الى آخر الغابة. ولكن، أنصحكما بالحذر : هناك لصوص في الجوار منذ بعض الوقت.

دون جوان : اشكرك، يا صديقي، من كل قلبي.

الفقير : ألا تستطيع، يا سيدي، أن تَمُدَّ لي يَدَ المساعدة.

دون جوان : آه، آه ! لنصيحتك ثمن كما أرى.

الفقير : يا سيدي، انا رجل فقير أعيش وحيداً في هذه الغابة منذ عشر سنين ولن أتوانى عن الصلاة لكي تجزل السماء لكم العطاء.

دون جوان : يا صاح، صلِّ لكي تعطيك ثياباً دون أن تزعج نفسك من أجل الآخرين.

سغاناريل : انت لا تعرف سيدي، يا طبيب القلب، فهو لا يؤمن إلّا بـ « إثنين واثنين يساويان اربعة واربعة واربعة تساوي ثمانية ».

دون جوان : وماذا تفعل بين هذه الأشجار ؟

الفقير : أصلّي وأتضرَّع للسماء كل يوم من أجل غبطة الناس الأخيار الذين يتصدَّقون عليَّ.

دون جوان : إذاً، لا بُدَّ من أن تكون ميسوراً.

الفقير : للأسف، يا سيدي، أعيش في عوزٍ تام.

دون جوان : أتسخر مني ! من يصلّي للسماء اليوم بطوله لا يمكن إلّا أن تكون أعماله بخير.

الفقير : أؤكد لك، يا سيدي، أنني لا أملك، في معظم الأحيان، قطعة خبز آكلها.

دون جوان : هذا غريب فأنت لا تكافأ جيداً على صلواتك. ها، ها ! سأعطيك ليرة ذهبيّة إذا حلفت بالله.

الفقير : اوه، يا سيدي، تريد أن أرتكب خطيئة ؟

دون جوان : عليك الإختيار إذا كنت تريد الليرة الذهبيّة. ها هي. سأعطيك اياها إذا حلفت. خذ وعليك أن تحلف.

الفقير : يا سيدي ..

دون جوان : لن تحصل عليها إذا لم تحلف.

سغاناريل : هيا، هيا، إحلف قليلاً، لا ضير في ذلك.

دون جوان : خذها، ها هي، خذها، قلت لك إحلف إذا، ...

الفقير : لا، يا سيدي، افضّل الموت من الجوع.

دون جوان : هيا، هيا، اني اعطيك اياها من أجل الإنسانية. ماذا ارى هناك ؟ رجلاً يهاجمه ثلاثة رجال ؟ المعركة غير متكافئة ومن واجبي إظهار الشجاعة ومساعدته.

المشهد الثالث

دون كارلوس، دون جوان، سغاناريل.

سغاناريل (**وحده**) : إن سيدي على قدر كَبير من التهوُّر فهو يجابه خطراً لا يعنيه. ولكن، يا إلهي، النجدة أتت شجاعته بثمارها والإثنان أرغما الثلاثة على الفرار.

دون كارلوس (**مستلاً سيفه**) : إن فرار اولئك اللصوص يبيِّن أهمية مساعدتك لنا. يا سيدي، تقبّل شكري وإمتناني على هذا العمل الشهم و ...

دون جوان (**عائداً والسيف في يده**) : يا سيدي، لم أفعل شيئاً لا تفعله أنت لو كنت مكاني. إن كرامتنا معنيّة بمثل هذه المجازفات وعمل اولئك الأنذال كان جباناً وأحسب أني كنت متواطئاً معهم لو لم أجابههم. ولكن، كيف وقعت بين أيديهم ؟

دون كارلوس : لقد ابتعدت بالصدفة عن أخي وعن كل رجالنا، وفيما كنت

احاول اللحاق بهم، التقيت بأولئك اللصوص الذين قتلوا اولاً حصاني وكانوا على وشك أن يقضوا عليّ لولا شجاعتك.

دون جوان : هل تريد الوصول الى المدينة ؟

دون كارلوس : أجل ولكن دون الدخول اليها. لقد أُجْبِرتُ وأختي على السفر بسبب إحدى تلك القضايا المزعجة التي ترغم النبلاء على التضحية بأنفسهم، هم وعائلاتهم، في سبيل الشرف وموجباته الصارمة. إذ أن النهاية في أكثر الأحيان تكون دائماً حزينة وأنه، إذا لم نمت، فنحن مضطرّون لمغادرة المملكة. لهذا السبب، أجد الشريف النبيل تعسا : انه لا يستطيع قط الوثوق بمسلكه الحذر كل الحذر والشريف جدّاً، ويتحمل، بموجب أحكام الشرف، مسؤولية سوء تصرُّف الآخرين، ويرى حياته وراحته وأرزاقه مرهونة بنزوات متهور ما يسيء اليه اساءةً يستحق أن يموت بسببها.

دون جوان : ولكن، من حسنات وضعهم ايضاً أنهم يعرِّضون بسرور اولئك الذين يهينونهم لنفس الخطر ويجعلونهم يعيشون اوقاتاً صعبة. أيكون تطفُّلاً مني لو سألتك عن قضيتك ؟

دون كارلوس : أوشكت القضية على الظهور. حين تنزل بنا الإساءة، لا نحاول إخفاء عارنا بل إظهار انتقامنا وحتى إعلان ما نرمي اليه. لذا، يا سيدي، أقول بلا تردد، أن الشخص المهان الذي نسعى للثأر له هو أختي التي غُرِّر بها وخطفت من الدير. وفاعل الإساءة هو دون جوان تينوريو ابن دون لويس تينوريو. نحو نبحث عنه منذ بضعة أيام وقد تبعناه هذا الصباح، بناءً على كلام خادم قال لنا أنه خرج راكباً على حصانه برفقة أربعة أو خمسة رجال وانه إتّجه نحو هذا الشاطئ. ولكن جهودنا لم تثمر ولم نستطع معرفة مكانه.

دون جوان : هل تعرف، يا سيدي، دون جوان هذا الذي تتكلم عنه ؟

دون كارلوس : كلا، لم أره قط وقد وصفه لي أخي فقط، ولكن سمعته ليس حسنة وهو رجلٌ حياتُهُ ...

دون جوان : توقّف يا سيدي، إذا سمحت. انه يكاد يكون صديقاً لي وأكون جباناً لو أذنت لك بإغتيابه.

دون كارلوس : لن أغتابه ابداً، يا سيدي، وذلك تقديراً وشكراً لك. بعد أن

أنقذت حياتي، فإن أقلَّ شيء ادين لك به هو عدم التكلم أمامك عن شخص تعرفه في حين لا يسعني التكلم عنه دون المسِّ بمسلكه. ولكن، مهما بلغت صداقتك له، آمل بأنك لن توافقه على عمله ولن تستغرب محاولتنا الإنتقام منه.

دون جوان : بل على العكس، اريد أن أخدمك في هذه القضية وأوفّر عليك جهوداً غير مجدية. إن شئت أم أبيت، فأنا صديق دون جوان إلّا إنه من غير المعقول أن يسيء لرجال نبلاء دون أن ينال عقابه وأراني ملتزماً ببلوغك حقك.

دون كارلوس : وهل هناك حقٌّ لِيُستَعَاد في هذا النوع من الإساءات ؟

دون جوان : أقصد ذلك الحق الذي يتوخّاه شرفك. لا تزعج نفسك أكثر في البحث عنه ! أعدك بإحضاره الى المكان الذي تريده وفي الوقت الذي تختاره.

دون كارلوس : هذا الأمل، يا سيدي، يريح جداً قلوباً مهانة؛ ولكن، نظراً لما أدين به لك، يؤلمني جداً أن تكون طرفاً في هذه القضية.

دون جوان : إن ارتباطي بدون جوان وثيق الى درجة أنني أقاتل معه إذا ما قاتل. على كل حال، انا كفيل به كما بنفسي وعليك فقط أن تقول متى تريد أن يظهر ويحقق رغبتك.

دون كارلوس : كم قدري قاسٍ ! أيجب أن أدين لك بحياتي وأن يكون دون جوان أحد اصدقائك ؟

المشهد الرابع

دون الونس واتباعه، دون كارلوس، دون جوان، سغناريل

دون الونس (**يكلم أتباعه قبل أن يرى دون كارلوس ودون جوان**) : اسقوا الخيل هناك ثم احضروها الينا. اريد أن أتمشّى قليلاً. أيتها السماء ! ماذا أرى هنا ! أخي مع عدوِّنا اللدود ؟

دون كارلوس : عدوِّنا اللدود ؟

دون جوان (**يتراجع ثلاث خطوات ويضع يده باعتزاز على مقبض سيفه**) : نعم، انا دون جوان ذاته، وعددكم لا يرغمني على التستر.

دون الونس (**مستلاً سيفه**) : ايها الخائن ! يجب أن تموت و ... (سغاناريل يركض ويختبئ).

دون كارلوس : لا، توقف يا أخي : انا مدين له بحياتي. لولا مساعدته، لكان اللصوص الذين اعترضوا سبيلي قد قتلوني.

دون الونس : أتُحْجِمُ عن الإنتقام من أجل هذا الإعتبار ؟ مهما تكن الخدمات التي تؤديها لنا يدٌ عدوة، فهي لا تستأهل التزامنا بتبرئتها. وإذا كان علينا القياس بين الواجب والإهانة، فامتنانك، يا أخي، يبدو سخيفاً هنا. بما أن الشرف هو أثمن بلا قياس من الحياة فلست مديناً بحياتك لمن انتزعها منا.

دون كارلوس : اني اعرف، يا أخي، الفارق الذي على النبيل أن يضعه دائماً بين الإهانة وعرفان الجميل. وهذا الأخير لا يزيل قط من نفسي الشعور بالإهانة. لذا إقبل بأن أردَّ له ما اعارني أياه وأن أسدِّد ديني على الفور عن طريق تأجيل انتقامنا وإعطائه حرية التمتع بحياته لبضعة أيام.

دون الونس : لا، لا، إن إرجاء الإنتقام مجازفة به وفرصة تحقيقه التي تتيحها لنا السماء الآن قد لا تأتي ثانيةً، وعلينا الاستفادة منها. عندما يصاب الشرف إصابة قاتلة، علينا عدم التفكير بأي اعتبار آخر وإذا كنت تمتعض من المشاركة في هذا العمل، ما عليك سوى الإنسحاب وتترك لي شرف هذه التضحية.

دون كارلوس : بالله عليك، يا أخي ...

دون الونس : لا جدوى من كل هذا الكلام. يجب أن يموت.

دون كارلوس : قلت لك توقف يا أخي. لا أسمح أبداً بقتله وأقسم بالله بأنني سأدافع عنه ضد أيٍّ كان وسأعرف كيف اجعل من نفسي درعاً له. يجب أن تقتلني أولاً قبل أن توجه اليه الضربات.

دون الونس : ماذا ؟ اراك تقف الى جانب عدوِّنا، وبَدَلَ أن تتملَّكك نفس المشاعر التي اشعر بها، تظهر تجاهه مشاعر الرقة والشفقة ؟

دون كارلوس : لنظهر، يا أخي، بعض الإعتدال في هذا العمل المحقّ ولننتقم من دون هذا الحنق الذي تبديه. ليكن لنا قلبٌ نحن اسيادُهُ وليكن لنا مثل أعلى عادل وهو أن تُقْدِمَ علىْ الأمور بروح التصوُّر والتصميم وليس بدافع الغضب الأعمى. يا أخي، علينا دين ينبغي إيفاؤه قبل كل شيء وانتقامنا لن يخسر شيئاً من مجده إذا تأجّل، بل على العكس، سيستفيد من هذا التأجيل الذي سيبدو للجميع أكثر عدلاً.

دون الونس : يا لهذا الضعف الغريب، ويا لهذه المجازفة المخيفة العمياء بشرفنا لمجرد تصوُّر سخيفٍ وواجبٍ خيالي !

دون كارلوس : لا، يا أخي، لا تتكدَّر. إذا أخطأت، اعرف كيف أصحِّح خطئي. إني اتكفّل بمسؤولية شرفنا واعرف الواجب الذي يجبرنا على القيام به، وعملية تعليق الإنتقام ليوم واحد التي يفرضها عرفان الجميل، سيزيد من حماستي للقيام بهذا الواجب. انت ترى، يا دون جوان، اهتمامي الشديد بتسديد ديني؛ فأحكم بنفسك وثق بأنني سأقوم بواجبي بنفس الحماسة وكما كنت قاطعاً في رد الجميل سأكون صارماً في غسل العار. لا ابغي ارغامك على تبرير مشاعرك واعطيك ملء الحرية في التفكير بالقرار الذي ستتخذه. أنت تعرف مدى الإهانة التي الحقتها بنا واجعلك تحكم بنفسك بالنسبة الى العطل والضرر اللذين تتطلّبهما. هناك وسائل لطيفة لإرضائنا كما هنالك العنيف منها والدموي. على كل حال، مهما يكن إختيارك، فلقد وعدتني بأن تجعلني آخذ حقي من دون جوان : فكّر بالأمر مليّاً، أرجوك، وتذكر انني لم أعد أدين سوى لشرفي خارِجَ هذا المكان.

دون جوان : لم أطلب منك شيئاً وسأبرُّ بوعدي.
دون كارلوس : هيا، يا أخي : إن لحظة رقة لا تسيء لواجبنا الصارم بشيء.

المشهد الخامس

دون جوان، سغاناريل.

دون جوان : أين انت، يا سغاناريل !
سغاناريل (وهو يخرج من المكان الذي إختبأ فيه) : العفو ؟ ماذا قلت ؟
دون جوان : ماذا ؟ أتهرب، أيها الماكر، حين يهاجمونني ؟
سغاناريل : سامحني، يا سيدي، انا آتٍ من مكان قريب. هذه الثياب مليّنة ومطهِّرة على ما أظن وإرتداؤها هو دواء بحد ذاته.
دون جوان : يا لوقاحتك ! استر جبنك بستار أكثر شرفاً على الأقل. هل تعرف من هو الذي انقذت حياته ؟
سغاناريل : لا يا سيدي.
دون جوان : انه أحد اشقّاء الفير.
سغاناريل : أحد ...
دون جوان : انه رجل نبيل وشريف. لقد أحسن التصرُّف وأنا آسف لكوني على نزاع معه.
سغاناريل : ولكن، تسهُل عليك تسويةُ الأمور.
دون جوان : اجل. غير أن عاطفتي خمدت تجاه الفير والإلتزام لا يتلاءم مطلقاً مع مزاجي. كما تعرف، أنا أحبِّذ الحرية في الحب ولا استطيع سجن قلبي بين اربعة جدران. قلت لك عشرين مرة أن الإستسلام لما يجذبني ويبعدني عن ميولي الطبيعيّة. لكل الحسناوات الحق في أسر قلبي .مداورة والإحتفاظ به على قدر الإمكان. ما هو هذا الصرح الجميل الذي أراه من بين الأشجار ؟
سغاناريل : ألم تعرف بعد ؟

دون جوان : حقاً لا.
سغاناريل : هذا هو القبر الذي كان يبنيه الفارس الآمر حين قتلته.
دون جوان : آه، انت على حق. لم أكن اعرف أنه يقع في هذا المكان. لقد اخبرني الجميع عن روائع هذا الصرح، كذلك عن تمثال الفارس الآخر، وأرغب في رؤيته.
سغاناريل : لا تذهب الى هناك، يا سيدي.
دون جوان : لماذا ؟
سغاناريل : ليس من اللائق أن ترى رفاق رجلٍ قتلته.
دون جوان : بل على العكس، ستكون زيارة لائقة ويجب أن يستقبلني بكل طيبة خاطر إذا كان مهذباً ولطيف العُشرة. هيا، لندخل اليه.
(ينفتح القبر فيُرى ضريحاً رائعاً وتمثال الفارس الآمر).
سغاناريل : يا للروعة ! يا للتماثيل الجميلة ! يا للرخام الجميل ! يا للأعمدة الجميلة ! كم هذا جميل ! ما رأيك يا سيدي ؟
دون جوان : رأيي أن طموح رجل ميت لا يستطيع الوصول الى أبعد من ذلك؛ والمدهش هو أن يكتفي الإنسان طوال حياته بمسكن متواضع ويريد الحصول على مسكن رائع حين لا يكون بحاجة اليه.
سغاناريل : هذا تمثال الفارس الآمر.
دون جوان : بالله ! كم شكله مضحك وهو يرتدي ثياب امبراطور روماني !
سغاناريل : بالله، يا سيدي، كم هو حسن الصنع ! يبدو وكأنه على قيد الحياة، وكأنه سيتكلم. انه ينظر الينا نظرات قد تخيفني لو كنت هنا لوحدي. وأظن أن رؤيتنا لا تلذُّ له.
دون جوان : مخطئٌ هو لو كان الأمر فعلاً كما تقول. لكان في ذلك اساءة لشرف زيارتي له. اسأله إذا كان يودُّ المجيء لتناول طعام العشاء معنا.
سغاناريل : هذا شيء لم يعد يحتاج إليه على ما أظن.
دون جوان : قلت لك : اسأله.
سغاناريل : أتسخر مني ؟ من الجنون التحدث إلى تمثال.
دون جوان : افعل ما اقوله لك.

سغاناريل : يا للغرابة ! ايها السيد الفارس .. (على حدة) أسخر من نفسي على حماقتي ولكن سيدي يريد ذلك. (بصوت عالٍ) يا سيدي الفارس، سيدي دون جوان يسألك إذا كنت ترغب في تشريفه وتناول طعام العشاء معه. (التمثال يحني رأسه) ها !؟

دون جوان : قل، ما الأمر ؟ ما بك ؟ لمَ لا تقول ؟

سغاناريل (**يحني رأسه كما فعل التمثال**) : التمثال ...

دون جوان : ما له ! ماذا تعني ايها الخائن ؟

سغاناريل : أقول لك إن التمثال ...

دون جوان : ما به ! التمثال ؟ سأضربك إذا لم تتكلم.

سغاناريل : لقد أوْمَأ التمثال إليّ.

دون جوان : تباً لك ايها الماكر.

سغاناريل : قلت لك أنه أومأ اليّ. انا لا أقول غير الحقيقة. تقدّم وكلّمهُ بنفسك. ربما ...

دون جوان : تعال، يا محتال، اريدك أن ترى جبنك بنفسك. إنتبه. أيريد السيد الفارس المجيء لتناول العشاء معي ؟ (التمثال يحني رأسه مرة أخرى).

سغاناريل : لن أتخلّى عن هذا المشهد مقابل عشرة دراهم. إذاً، يا سيدي ؟

دون جوان : هيا، لنخرج من هنا.

سغاناريل (وحده) : هذا ما لا أستطيع تصديقه.

الفصل الرابع

في شقة دون جوان

المشهد الأول

دون جوان، سغاناريل.

دون جوان : دعنا من هذا الأمر على كل حال : هذه أباطيل. ربما خدعنا الضوء في القبر أو حالة اضطراب في الرأس بلبلت رؤيتنا.
سغاناريل : لا، يا سيدي، لا تحاول التنكُّر لما رأيناه بأم أعيننا. لا شيء أصدق من ايماءة الرأس هذه ولا اشك بأن السماء التي صدمتها حياتك قامت بهذه المعجزة لإقناعك وردك لجادة الصواب ...
دون جوان : إسمع : إذا أستطلت في مضايقتي بنصائحك الأخلاقية الحمقاء، وإذا قلت لي أي كلمة بهذا الصدد، سأنادي أحدهم وأطلب عَصَبَ جاموس وأجعل ثلاثة أشخاص أو اربعة ممسكون بك وأوسعك ضرباً. هل تسمعني جيداً ؟
سغاناريل : هذا جيدٌ جداً، يا سيدي، أنت تشرح بوضوح. ما يعجبني منك هو عدم المواربة وقول الأشياء بوضوح مدهش.
دون جوان : هيا، ليحضروا لي العشاء في اقرب وقت ممكن. جئني بكرسي، أيها الخادم.

المشهد الثاني

دون جوان، لافيوليت، سغاناريل.

لافيوليت : يا سيدي، ها هو تاجر القماش، السيد ديمونش يريد أن يكلمك.
سغاناريل : حسناً ! ما كان ينقصنا سوى اطراء دائن. ماذا خطر له حتى جاء يطالبنا بالمال، ولماذا لم تقل له أن سيدي ليس هنا ؟
لافيوليت : اني اقول له هذا منذ ساعة إلّا انه لم يصدقني وقد جلس ينتظر هناك في الداخل.
سغاناريل : لينتظر قدر ما يستطيع.
دون جوان : بل، على العكس، دعه يدخل. هي سياسة رديئة جداً أن نهرب من الدائنين. من الأفضل أن نعلّلهم بالوعود وأنا خبير في ارضائهم وردِّهم على أعقابهم دون اعطائهم درهماً واحداً.

المشهد الثالث

دون جوان، السيد ديمونش، سغاناريل، والخدم.

دون جوان (**مبالغاً في المجاملة واللياقة والتهذيب**) : إقترب، يا سيد ديمونش. كم أنا مسرور لرؤيتك وكم أنا غاضب من رجالي لأنهم لم يدخلوك على الفور ! كنت قد أمرتهم بأن لا يدعوا احداً يدخل ولكنّ هذا الأمر يستثنيك ومن حقك أن تجد ابوابي مفتوحة لك دائماً.
ديمونش : اشكرك، يا سيدي. انا ..
دون جوان (**لخدّامه**) : ويحكم، ايها الماكرون، سأعاقبكم لأنكم تركتم السيد ديمونش في غرفة الإنتظار؛ سأجعلكم تقدِّرون الناس.
ديمونش : لا تحنقّ، يا سيدي.
دون جوان (**للسيد ديمونش**) : كيف وقد قالوا لأفضل اصدقائي السيد ديمونش انني لست هنا ؟

ديمونش : انا خادمك، يا سيدي. لقد اتيت ...
دون جوان : هيا، بسرعة، أحضروا مقعداً للسيد ديمونش.
ديمونش : انا مرتاح هكذا، يا سيدي.
دون جوان : قطعاً لا. اريدك أن تجلس بقربي.
ديمونش : ليس هذا ضرورياً.
دون جوان : خذوا هذا الكرسي من هنا وأحضروا مقعداً مريحاً.
ديمونش : يا سيدي، انت تسخر مني و ..
دون جوان : لا، لا، اعرف انني مدينٌ لك ولا اريد مرتبة بيننا.
ديمونش : يا سيدي ...
دون جوان : هيا إجلس.
ديمونش : لا حاجة لذلك، يا سيدي، فليس لدي سوى كلمة وحدة اقولها لقد ...
دون جوان : قلت لك، أقعد.
ديمونش : لا، يا سيدي. انا مرتاح. جئت ...
دون جوان : لن اصغي اليك ما لم تجلس.
ديمونش : يا سيدي، اني افعل ما تريد. انا ...
دون جوان : آه ! إن صحتك جيدة يا سيد ديمونش.
ديمونش : نعم، يا سيدي، ولخدمتك. لقد أتيت ...
دون جوان : انت تملك صحة رائعة وشفتين نضرتين ووجهاً قرمزياً وعينين حادّتين.
ديمونش : اريد أن ...
دون جوان : كيف هي احوال مدام ديمونش، زوجتك ؟
ديمونش : جيدة جداً، لحسن الحظ يا سيدي.
دون جوان : انها امرأة شجاعة.
ديمونش : انها خادمتك، يا سيدي، لقد أتيت.
دون جوان : وابنتك الصغيرة كلودين، كيف هي ؟
ديمونش : في أحسن حال.

دون جوان : يا لها من فتاة جميلة ! أحبها من كل قلبي.
ديمونش : هذا شرف كبير لها يا سيدي. أنا ...
دون جوان : وكولان الصغير، ألا يزال يَضُجُّ بطبله ؟
ديمونش : هو على حاله، يا سيدي. أنا ...
دون جوان : وكلبكم الصغير بروسكيه، ألا يزال يزمجر عالياً ويَعُضُّ أرجل الذين يزورونكم ؟
ديمونش : أكثر من أي وقت مضى، يا سيدي، ونحن لا نعرف كيف التخلص من هذه العادة.
دون جوان : لا تعجب لإستعلامي عن العائلة كلها فأنا اهتمُّ بها كثيراً.
ديمونش : نحن في غاية الإمتنان، يا سيدي. انا ...
دون جوان (**يمدُّ له يده**) : ضع يدك هنا إذاً، يا سيدي ديمونش. هل انت صديق لي ؟
ديمونش : انا خادمك، يا سيدي.
دون جوان : وانا لك من كل قلبي.
ديمونش : هذا شرف كبير لي. أنا ...
دون جوان : لأجلك افعل المستحيل.
ديمونش : انك تظهر لي الكثير من الطيبة يا سيدي.
دون جوان : وذلك دون اية مصلحة، ارجو أن تصدقني.
ديمونش : اني، بالتأكيد، لا استحق هذه النعمة. ولكن يا سيدي ...
دون جوان : هيا، هيا، يا سيدي ديمونش، بدون تكلفة، هل تريد تناول العشاء معي ؟
ديمونش : كلا، يا سيدي يجب أن أعود على الفور. أنا ...
دون جوان (**واقفاً**) : هيا، بسرعة، أحضروا مشعلاً لمرافقة السيد ديمونش وليأخذ اربعة او خمسة من رجالي بنادقهم لحراسته.
ديمونش (**واقفاً ايضاً**) : ليس هذا ضرورياً يا سيدي واستطيع الذهاب وحدي. ولكن ...

(سغاناريل يسحب المقاعد بسرعة)

دون جوان : كيف ؟ اريد أن يرافقوك. انا اهتم كثيراً بشخصك. انا خادمك ومدين لك ايضاً.

ديمونش : آه، يا سيدي ...

دون جوان : هذا الأمر ليس سراً وأنا اقوله لكل الناس.

ديمونش : إذا ...

دون جوان : اتريد أن أرافقك ؟

ديمونش : آه، يا سيدي، انت تهزأ مني. يا سيدي ...

دون جوان : قبلني اذاً، إذا سمحت. أطلب منك للمرة القادمة أن تقتنع بأنني لك بكلّيتي وأنني لخدمتك أفعل المستحيل.

(هنا يخرج دون جوان)

سغاناريل : عليك الإعتراف بأن سيدي يحبك كثيراً.

ديمونش : هذا صحيح. فهو يعاملني بكل تهذيب ولياقة ويوجه اليّ الكثير من الإطراء والمديح حتى انني لا استطيع مطالبته بالمال.

سغاناريل : اؤكد لك أنه وأهله مستعدون للموت في سبيلك وأتمنى أن يحصل لك مكروه، أو أن يوسعك أحدٌ ضرباً حتى ترى الطريقة التي ...

ديمونش : انا واثق من ذلك، ولكن، يا سغاناريل، ارجوك أن تذكره قليلاً بما لي عنده من مال.

سغاناريل : اوه ! لا تزعج نفسك فسيدفع لك حتما.

ديمونش : ولكن، انت ايضاً، يا سغاناريل، مدين لي بالمال.

سغاناريل : أفٍّ ! لا تكلمني عن المال.

ديمونش : كيف ؟ انا ...

سغاناريل : ألا اعرف انني مدين لك ؟

ديمونش : بلى ولكن ...

سغاناريل : هيا، يا سيدي ديمونش، سأضيء لك الطريق.

ديمونش : ولكن، مالي ...

سغاناريل (مُمسكاً بذراع ديمونش) : أتمازحني ؟

ديمونش : اريد ...

سغاناريل (**وهو يجرُّه**) : هيا !
ديمونش : اريد ...
سغاناريل (**وهو يدفع به الى الأمام**) : هراء !
ديمونش : ولكن ...
سغاناريل (**مستمراً في دفعه**) : أفٍّ !
ديمونش : انا ...
سغاناريل (**وهو يدفع به خارج المسرح**) : قلت لك أف.

المشهد الرابع

دون لويس، دون جوان، لافيوليت، سغاناريل.

لافيوليت (**لدون جوان**) : يا سيدي، ها هو ابوك.
دون جوان : ها أنذا في أحسن حال لم يكن ينقصني سوى هذه الزيارة لكي افقد صوابي.
دون لويس : اني أُربكك، كما أرى، وتستطيع بكل سهولة الإستغناء عن رؤيتي. في الحقيقة، نحن احدنا مصدر ازعاج للآخر. إذا كنت تعبت من رؤيتي، فأنا ايضاً تعبت من تصرفاتك الفاسقة. للأسف ! نحن نعرف القليل عما نفعله حين نأبى التوكل على السماء في امورنا الضرورية وحين نظن اننا أكثر فطنةً منها ونُصِرُّ على ازعاجها بأمانينا العمياء وطلباتنا القليلة التبصُّر ! تمنيت بشغف لا مثيل له ان أُرْزَق ولداً؛ طلبت هذا باستمرار وبحماسة لا تصدق؛ وهذا الولد الذي حصلت عليه بعد أن ارهقت السماء بطلباتي، هو مصدر حزن وعذاب لي. هذا الإنسان الذي ظننت إنه سيكون مصدر فرحي وعزائي. بأية عين، في رأيك، استطيع رؤية هذه الأعمال الحقيرة التي لا يمكننا التخفيف من بشاعتها في أعين الناس، هذه الأعمال السيئة المتواصلة التي جعلتني بإستمرار أستنفذ رأفة الملك ورصيدي ورصيد أصدقائي عنده، من الخدمات ؟ يا لها من حقارة ! ألا تخجل قط من نسبك ؟ قل لي، أيحقُّ

لك الإفتخار به ؟ ماذا فعلت في هذه الدنيا لكي تكون من النبلاء ؟ أو تظن أنه يكفينا حمل الإسم والسلاح وفخر الإنتساب الى دم نبيل حين نعيش عيشة دنيئة ؟ لا، لا، لا قيمة للنسب بدون الفضيلة. نحن لا نشارك اسلافنا مجدهم إلّا بقدر ما نحاول التشبّه بهم ومآثرهم العظيمة التي تظلّلنا تفرض علينا الإلتزام بتكريمهم بالسير على خطواتهم وبإتباع الخطوات التي رسموها لنا وبعدم الإنحراف عن فضائلهم، إذا كنا فعلاً نريد أن نعتبر انفسنا خلفاً لهم. أما أنت، فنسبك باطل وأسلافك يتنكّرون لك وما قد فعلوه من أعمال ميجدة لا يعطيك اي امتياز عن غيرك؛ بل على العكس، بريق أعمالهم ينعكس عليك ليظهر خزيك وعارك. إن مجدهم مشعل يسلّط الضوء، على أعمالك المشينة. واعلم أخيراً أن الرجل النبيل الذي يعيش عيشة سيئة هو مسخ في الطبيعة، وأن الشرف هو عنوان النبل. انني انظر الى الأعمال وليس الى الأسماء وانني احترم ابن حمّال شريف أكثر من ابن ملك يعيش مثلك.

دون جوان : يا سيدي، لو كنت جالساً لأحسنت الكلام بصورة افضل.

دون لويس : لا ايها الوقح، لا اريد الجلوس ولا قول المزيد من الكلام. وأرى جيداً أن كل ما قلته لم يؤثر بك. ولكن، اعلم، أيها الإبن الجاحد، انك استنفدت مني حنان الأب من جراء اعمالك وأنني استطيع، بأسرع مما تظن، وضع حدٍّ لإنحرافاتك ومعاقبتك قبل السماء وغسل عار انتسابك إليّ عن طريق الإقتصاص منك.

(هنا يخرج دون لويس)

المشهد الخامس

دون جوان، سغاناريل.

دون جوان : مت بأسرع ما يمكن، هذا افضل ما يمكنك فعله. لكل واحد دوره، وأتحرق لأرى الآباء يعيشون مثل ابنائهم فيفهمونهم.

(يجلس على المقعد)

سغاناريل : آه، يا سيدي، أنت على خطأ.

دون جوان : على خطأ ؟

سغاناريل (**وهو يرتجف**) : يا سيدي ..

دون جوان (**منتصباً**) : على خطأ ؟

سغاناريل : اجل، يا سيدي، لقد أخطأت لأنك تحمّلت ما قاله لك وقد كان عليك حمله ورميه خارج الدار. يا لها من وقاحة، أن يوبِّخ والد ولده ويطلب منه تصحيح اخطائه وتذكر نسبه والعيش كرجل شريف، والعديد من الحماقات الأخرى ! كيف استطاع تَحَمُّل ذلك رجلٌ مثلك يعرف كيف يعيش ؟ إني معجب بصبرك. لو كنت مكانك لطردته. (على حدة) ايتها المجاملة الملعونة، الى اين أوصلتني ؟

دون جوان : أريد تناول العشاء، هل هو جاهز ؟

المشهد السادس

دون جوان، دونا الفير، راغوتان، سغاناريل.

راغوتان : يا سيدي، هذه سيدة متسترة جاءت لتكلمك.

دون جوان : من هي، يا ترى ؟

سغاناريل : لنرى.

دونا الفير : لا تتفاجأ، يا دون جوان، إذ تراني في هذه الساعة وفي هذا الزي. إن سبباً ملحّاً ارغمني على هذه الزيارة وما سأقوله لك لا يحتمل التأجيل ابداً. لم اجيء الى هنا مليئة بالغضب الذي فجّرته منذ قليل وكما ترى، لقد تغيّرت كثيراً منذ الصباح. لم أعد دونا الفير تلك التي كانت تتمنى لك الشر والتي كانت في قمة غضبها تطلق التهديد ولا تبغي غير الإنتقام. إن السماء ازالت من نفسي كل ذلك الغضب عليك وكل فورات الغيرة العاصفة والمجرمة وكل مشاعر العشق الأرضي الفظ المخجلة؛ ولم تترك لك في قلبي سوى شعلة خالية من الشهوانية، وسوى حنان في غاية القداسة وحب منزّه عن كل شيء لا

يسعى أبداً في سبيل مصالحه ولا يلتفت سوى لمصلحتك.

دون جوان (**لسغاناريل بصوت خافت**) : انت تبكي على ما أظن.

سغاناريل : سامحني.

دونا الفير : ان هذا الحب الكامل والنقي هو الذي جاء بي الى هنا من أجلك، ولكي اوصل اليك تحذيراً من السماء، وأحاول ابعادك عن الهاوية التي أنت بصدد الإنزلاق فيها. اجل، يا دون جوان، اني اعرف كل تصرفاتك الفاسقة وهذه السماء نفسها التي امتلكت قلبي وجعلتني أدرك سلوكي المنحرف، أوحت اليّ بالمجيء لكي انذرك، من قبلها، بأن اساءاتك استنفدت رحمتها وأن غضبها الرهيب أوشك على الإنقضاض عليك وأنه بإمكانك تجنّبه من خلال ارتدادك السريع. ربما لم يعد امامك سوى يوم واحد للإفلات من أكبر المصائب. اما أنا، فلم اعد أرتكبها ولأستحقَّ من خلال ندمي العظيم العفو عن المتاهات التي أغرقتني فيها فورات حب مذموم. ولكني سأتألم كثيراً وسط تزهُّدي إذا علمت أن شخصاً أحببته من كل قلبي اصبح عبرة مشؤومة لعدالة السماء. إن فرحي سيكون كبيراً إذا استطعت إبعاد الضربة الرهيبة المهددة، عن رأسك. بالله عليك، يا دون جوان، إمنحني هذه التعزية كحظوة أخيرة. لا ترفض لي طلب خلاصك الذي اطلبه ممزوجاً بالدموع. وإذا كانت مصلحتك لا تعنيك فعلى الأقل، تأثَّر بتوسلاتي وجنِّبني الآلام العنيفة التي ستنتابني إذا ما حكِم عليك بعذابات ابديّة.

سغاناريل : (**على حدة**) يا لها من امرأة مسكينة !

دونا الفير : إني أحببتك حباً عظيماً ولا شيء في الدنيا كان أعزّ منك؛ نسيت واجبي لأجلك وعملت كل شيء في سبيلك، وجلُّ ما أطلبه منك هو تقديم حياتك وتجنب موتك. أرجوك، أنقذ نفسك من أجلك أو من أجلي. مرةً أخرى، يا دون جوان، اطلب منك هذا ممزوجاً بالدموع. وإذا كانت دموع مَن احببته لا تكفي. استحلفك بكل ما هو قادر على التأثير بك.

سغاناريل (**على حِدة وهو ينظر الى دون جوان**) : ما هذا القلب القاسي ؟

دونا الفير : انا ذاهبة وقد قلت ما كنت اريد قوله.

دون جوان : لقد تأخّر الوقت، يا سيدتي، إبقي هنا فسنعتني بك على قدر المستطاع.

دونا الفير : لا، يا دون جوان لا تستَبْقني.

دون جوان : أؤكد لك، يا سيدتي، أنني سأُسَرُّ لبقائك.

دونا الفير : قلت لك لا، فلا تُضيِّع الوقت بكلام غير مُجْدٍ. دعني أرحل بسرعة ولا تُصِرُّ على مرافقتي. فكِّر فقط بالإستفادة مما قلت.

المشهد السابع

دون جوان، سغاناريل، الخدم.

دون جوان : أتعرف أن مشاعري تحرّكت بعض الشيء تجاهها وأنني وجدت حلاوةً في هذا الجديد الغريب وأن ثيابها المهملة ومظهرها البسيط ودموعها أيقظت في نفسي شعلة حب مطفأة ؟

سغاناريل : هذا يعني أن كلامها لم يؤثِّر فيك.

دون جوان : الى العشاء بسرعة.

سغاناريل : هذا حسن جداً.

دون جوان (**جالساً الى المائدة**) : ومع ذلك، يجب التفكير في إصلاح أنفسنا.

سغاناريل : أصبت !

دون جوان : نعم، علينا في الواقع، إصلاح أنفسنا. سنفكِّر في ذلك بعد عشرين أو ثلاثين سنة.

سغاناريل : اوه !

دون جوان : ماذا قلت ؟

سغاناريل : لا شيء. ها هو العشاء. (يأخذ دون جوان قطعة من أحد الصحون التي أُحْضِرَت له ويضعها في فمه).

دون جوان : يبدو لي أن خدك متورِّم. ما هذا ؟ تكلم، ما بك ؟

سغاناريل : لا شيء.

دون جوان : دعني أرى. تباً ! هذا تورُّم قيحيّ على خدك. بسرعة، أحضروا لي مبضعاً لثقبها. المسكين لم يعد يحتمل وقد يخنقه الخرّاج. إنتظر أترى، كان على وشك أن ينفجر. يا لك من مكار !

سغاناريل : في الحقيقة، يا سيدي، كنت اريد أن أرى إذا كان طباخك قد وضع الكثير من الملح والبهارات.

دون جوان : هيا، إجلس وكل. إنّي بحاجة اليك بعد العشاء. انت جائع على ما أظن.

سغاناريل (**يجلس الى المائدة**) : أظن ذلك، يا سيدي، فأنا لم آكل منذ الصباح. ذق هذا، فهو من افضل ما يكون.

(يأخذ الخادم صحن سغاناريل ويملأه طعاماً) صحني، صحني ! على مهل، لو سمحت. تباً لك ايها المحتال ! يا لك من ماهر في تقديم أطباق نظيفة ! وانت، يا لافيوليت، كم تجيد تقديم المشروبات في اوقاتها !

(أحد الخدام يأخذ ثانياً صحن سغاناريل من امامه بينما يَصُبُّ له آخرٌ كأساً)

دون جوان : من تراه يقرع الباب على هذا النحو ؟

سغاناريل : من جاء، يا ترى، ليعكِّر صَفْوَ عشائنا ؟

دون جوان : اريد تناول العشاء بسلام على الأقل، فلا تدعوا أحداً يدخل.

سغاناريل : دعني أرى. سأذهب بنفسي.

دون جوان (**لسغاناريل العائد وهو مذعور**) : ما الأمر ؟ ماذا هنالك ؟

سغاناريل (**حانياً رأسه كما فعل التمثال**) : الـ ... هنا !

دون جوان : لنرى ولنبيِّن أن ما من شيء يستطيع زعزعة افكارنا.

المشهد الثامن

دون جوان، تمثال الفارس الآمر (الذي جلس الى المائدة) سغاناريل والأتباع.

دون جوان (لرجاله وأتباعه): بسرعة، أحضروا كرسيّاً وملعقة وشوكة وسكيناً. (لسغاناريل) هيا، إجلس.

سغاناريل: لم أعد جائعاً، يا سيدي.

دون جوان: قلت لك، إجلس. لنشرب نخب الفارس الآمر. إني ارفع الكأس، يا سغاناريل، إملأوا له الكأس نبيذاً.

سغاناريل: يا سيدي، لست عطشاً.

دون جوان: إشرب وغنّي أغنيتك لنحتفل بالفارس الآمر.

سغاناريل: انا مصاب بالزكام، يا سيدي.

دون جوان: لا يَهُم. هيا، تعالوا انتم ورافقوه في الغناء.

الفارس الآمر: كفى، يا دون جوان. أنا أدعوك لتناول العشاء عندي غداً. أتجرؤ على المجيء ؟

دون جوان: أجل، وسأذهب برفقة سغاناريل وحده.

سغاناريل: أشكرك، يا سيدي، إني سأصوم غداً.

دون جوان (لسغاناريل): خذ هذا المشعل.

الفارس الآمر: لا حاجة للضوء حين ترشدنا السماء.

الفصل الخامس

مشهد ريف بالقرب من المدينة

المشهد الأول

دون لويس، دون جوان، سغاناريل.

دون لويس : ماذا ؟ أيمكن، يا بنيَّ، أن تكون رحمة السماء قد استجابت لدعائي ؟ أصحيحٌ ما تقوله لي ؟ ألم أُخْدَعُ بأملٍ كاذب ؟ أأستطيع الوثوق بهذا الإرتداد الجديد المفاجئ.

دون جوان : أجل. لقد عدلت عن كل اخطائي ولم أعُد كما كنت مساء البارحة. إن السماء قد أحْدَثَت فيَّ فجأةً تغييراً سيفاجئ الجميع؛ فقد هزتني وفتحت عينيّ فَرُحْتُ انظر بإشمئزاز للضلال الذي غرقت فيه طويلاً ولفوضى حياتي المجرمة التي عشتها. واستعرضت في نفسي كل اعمالي الكريهة ودُهِشْتُ كيف أن السماء استطاعت تحمُّلَهَا لوقت طويل ولَم تنزل بي ضربات عدالتها المخيفة. إني أدرك طيبتها ورحمتها تجاهي إذ انها لم تعاقبني قط على جرائمي، وابغي الإستفادة من ذلك، مُظْهِراً امام الجميع تغيير نمط عيشي المفاجئ وماحياً آثار أعمالي المخزية السابقة وساعياً للحصول على غفران كامل من السماء. هذا ما سأعمل لأجله وأرجو يا سيدي، أن تساهم معي في تحقيق هذا الهدف وأن تساعدني بنفسك على إختيار مرشدي الروحي الذي استطيع بعنايته السير بأمان في الطريق التي اخترتها.

دون لويس : كم يُسْتَرْجَعُ بسهولة حنان الأب، يا بني، وكم تُمحى بسرعة إساءات الإبن عند اول كلمة ندم ! لم اعد أذكر حتى العذابات العنيفة التي قاسيتها بسببك وقد محى الكلامُ الذي سمعته منك كل سيئاتك. اني لم اعد اسيطر على عواطفي كما ترى، وأذرف دموع الفرح بعد أن تحقّقت كل امنياتي وما عُدْتُ بحاجة لطلب اي شيء من السماء من الآن فصاعداً. قبلني يا بني. استحلفك بأن تستمرّ في هذه الخطى المشكورة. اما أنا، فسأغادر على التوّ لأنقل الخبر السعيد لأمك واشاركها مشاعر الإغتباط، حامداً السماء على القرارات المقدسة التي تنازلت واوحت لك بها.

المشهد الثاني

دون جوان، سغاناريل

سغاناريل : كم سُرِرْتُ لإرتدادك، يا سيدي ! اني أنتظره منذ زمن بعيد، وها إن أمنياتي كلها قد تحققت بفضل السماء.

دون جوان : تباً لك، ايها الساذج !

سغاناريل : ساذج ؟ كيف ؟

دون جوان : ماذا ؟ هل صدقت ما قلته ؟ هل صدقت أن قلبي هو الذي كان يتكلم ؟

سغاناريل : ماذا ؟ لم يكن ... لم ... (على حدة) يا له من رجل ! يا له من رجل !

دون جوان : لا، لا، لم اتغيّر قط ومشاعري ما زالت كما هي.

سغاناريل : ألم تفحمك معجزة التمثال المتحرك المتكلم المدهشة ؟

دون جوان : هناك أمر فيه لا افهمه. ولكن، مهما يكن هذا الأمر، فلن يستطيع اقناعي ولا زعزعة نفسي. ما سمعتني اقوله في شأن تقويم سلوكي وعيشي المثالي هو خدعة مفيدة، مظاهر خدّاعة ضرورية وقد قمت بها مرغماً لغاية تكتيكية صرفٌ ألا وهي تأمين مساعدة أبي الذي أحتاج إليه وإتّقاء شر العديد

من المغامرات المشؤومة. هذا الشر الذي قد يحصل لي من الناس. أفاتحك بهذا وانا مسرور، يا سغاناريل، لأنك سترى في أعماق نفسي الدوافع الحقيقيّة التي تجبرني على القيام بهذه الأمور.

سغاناريل : ماذا ؟ أنت لا تؤمن بشيء ابداً وتريد الظهور بمظهر الرجل الصالح ؟

دون جوان : ولِمَ لا ؟ كثيرون مثلي يتعاطون هذه المهنة ويستخدمون نفس القناع لخداع الناس.

سغاناريل (**على حدة**) : يا له من رجل ! يا له من رجل !

دون جوان : لم يعد أحدٌ اليومَ يخجل بهذا الأمر. فالخبث هو عيب شائع والعيب الشائع كالأخطاء الشائعة تصبح صواباً. إن شخصية الرجل الصالح هي أفضل شخصية نستطيع أن نلعبها اليوم، ومهنة الخبيث لها مميزات رائعة. هي فنٌّ أربابه محترمون؛ حتى ولو إكتشفت ألاعيبهم، لا احد يجرؤ على الوقوف ضدهم. فبينما تظلُّ عيوب الناس الأخرى عرضةً للرقابة ولكل واحد منا حرية مهاجمتها بصوت عالٍ، يبقى الخبث عيباً مميّزاً يفحم كلِ الناس ويتمتع بالطمأنينة وبحصانة قصوى. وإذ تتكاثر المظاهر الخداعة، تتشكّل جمعية وثيقة من كل الذين ينتمون الى هذه المهنة (مهنة مُدَّعي التقوى). من يسيء الى أحدهم، عليه مجابهة الآخرين كلهم. واولئك الذين نعرف أنهم يتصرَّفون عن حسن نية وأنهم أتقياء حقيقيّون، هم دائماً مخدوعون ويقعون بسهولة في شراك الخبثاء ويؤيدون بغباوة أعمالهم الخدّاعة. كم تظن انني أعرف من اولئك الذين محوا بحذاقة وعن طريق هذه الخدعة، إنحرافات فتوَّتهم وجعلوا من الدين درعاً واقية ترى وراءها أكثر الناس شراً ؟ حتى ولو كشفت مؤامراتهم وعرفتهم على حقيقتهم، يبقى رصيدهم كما هو بين الناس. يكفي أن يحنوا رؤوسهم ويتنهدوا تنهد المتقشِّف ويجولوا قليلاً بنظرهم لكي يصلحوا ما قد فعلوه. سأختبئ وراء هذا الستار المناسب لكي اعيش في أمان واستقرار. لن أتخلى عن عاداتي الحلوة وإنّما سأخفيها بعناية وسألهو بأقل ضجة ممكنة؛ إذا كشفَ أمري، ستلتزم الجمعية كلها بمصالحي دون أنْ أحرِّك ساكناً، وتدافع عني ضد الجميع. هذه، بالنتيجة، الوسيلة الصحيحة التي

تمكّنني مِنْ أن أفعل ما أشاء دون عقاب. سأجعل نفسي رقيباً على أعمال الآخرين. وأحكم عليهم بغير عدل ولن اجامل إلّا نفسي. وإذا اساء إليّ أحدٌ، ولو قليلاً، لن اغفر له ابداً وسأحقد عليه بكل هدوء، حقداً لا يزول. سأصبح المنتقم لعدالة السماء وبهذه الحجّة الملائمة، سأفحم أعدائي وأتّهمهم بالكفر وأطلق وراءهم أتقياء متعصّبين صخّابين وأجعلهم يصرخون في العلن ضدهم دون معرفة الحقيقة ويَصْلونهم ناراً من الشتائم ويلعنونهم بصوت عالٍ بموجب سلطانهم الخاص. هكذا يجب أن نستفيد من ضعف الناس، وأن يتكيّف الرجل الحكيم مع عيوب عصره.

سغاناريل : ايتها السماء ! ماذا اسمع ؟ لم يكن ينقصك غير الخبث وهو منتهى الشر. لم يعد باستطاعتي الإمتناع عن الكلام. هذا أقوى مني. إفعل بي ما تريد، إضربني، أوسعني ضرباً، اقتلني إذا أردت، فيجب أن أقول ما في قلبي وما ينبغي قوله بصفتي خادمك الأمين، إعلم، يا سيدي، أن « ما كل مرة تسلم الجرّة » وقد صدق قول الكاتب الذي لا اعرف اسمه : « الإنسان في الوجود مثل العصفور على الغصن »؛ الغصن هو من الشجرة ومن يتعلق بالشجرة يتبع القوانين الجيدة والقوانين الجيدة تساوي اكثر من الكلام الجيّد؛ والكلام الجيّد نجده في البلاط حيث رجال البلاط الذين يتبعون الزي الشائع والزي ينجم عن الخيال الذي هو إحدى قدرات النفس؛ هي التي تعطينا الحياة التي تنتهي بالموت؛ والموت يجعلنا نفكّر بالسماء التي هي فوق الأرض؛ والأرض ليست البحر فحسب؛ والبحر يتعرّض للأنواء؛ والأنواء تضايق السفن؛ والسفن بحاجة الى ربان جيّد؛ والربان الجيد حذر؛ والحذر لا يكون قطعاً عند الشباب؛ والشباب ملزمون بالطاعة للشيوخ؛ والشيوخ يحبّون الثروات؛ والثروات تصنع الأثرياء الذين هم نقيض الفقراء؛ والفقراء في عوز؛ والعوز لا قانون له؛ ومن لا قانون له يعيش كحيوان متوحش؛ وبالتالي سيكون مصيرك جهنم.

دون جوان : يا له من تفكير جميل !

سغاناريل : بعد هذا، ليكن الأسوأ لك إذا انت لم تقتنع.

المشهد الثالث

دون كارلوس، دون جوان، سغاناريل

دون كارلوس : انت في المكان المناسب، يا دون جوان وأجِدُني مسروراً لإستطاعتي التحدث إليك هنا، أكثر مما في بيتك، أستطيع معرفة قراراتك. إن هذا الأمر يعنيني، كما تعرف، وقد تحملت مسؤوليته في حضورك. بالنسبة اليّ، أصارحك بأني اتمنى كثيراً لو يتم الأمر بالحسنى. لن أوفّر جهداً لجعلك تسلك هذه الطريق وتؤكد امام الجميع أن اختي هي زوجتك.

دون جوان (بخبث) : للأسف ! أتمنى من كل قلبي ان افعل ما تريد ولكن السماء تعارض الأمر مباشرة وقد اوصت إليّ بواجب تغيير حياتي. أنا لا افكر الآن سوى بالتخلّي تماماً عن كل ارتباطاتي الأرضية والتجرّد عن كل أنواع الغرور في اقرب وقت ممكن، ومن الآن فصاعداً إصلاح كل الإنحرافات المجرمة التي جعلني شبابي الضال ارتكبها وذلك عن طريق الإلتزام بسلوك صارم.

دون كارلوس : أن هذا الهدف، يا دون جوان، لا يسيء بشيء ابداً الى ما أبغيه ورفقة امرأة شرعية تتناسب تماماً مع الأفكار الحميدة التي اوحت لك بها السماء.

دون جوان : قطعاً لا. للأسف ! هذا قرار اتخذته اختك بنفسها؛ لقد قرّرت التزهد وقد بلغتنا النعمة معاً في آن واحد.

دون كارلوس : قرارها هذا لا يشبع رغباتنا لأنه قد يُعْزى الى احتقارك لها ولعائلتنا، وشرفنا يستوجب إقامتها معنا.

دون جوان : هذا مستحيل بالطبع. اني ارغب كل الرغبة في ذلك حتى أنني شاورت السماء اليوم في هذا الموضوع وسمعت صوتاً يقول لي أن لا افكّر على الإطلاق بأختك وانني بالتأكيد لن أحقّق معها خلاص نفسي.

دون كارلوس : أتظن، يا دون جوان انك تبهرنا بهذه الحجج الجميلة ؟

دون جوان : أنا اذعن لصوت السماء.

دون كارلوس : ماذا ؟ أتريد أن اقتنع بمثل هذا الكلام ؟

دون جوان : السماء تريد ذلك.
دون كارلوس : أتتخلى عن اختي بعد أن جعلتها تترك الدير ؟
دون جوان : السماء ارادت الأمور على هذا النحو.
دون كارلوس : ايمكننا ان نقبل بهذا الإساءة في عائلتنا ؟
دون جوان : قل هذا للسماء.
دون كارلوس : ما هذا ؟ السماء، السماء، كل مرة ؟
دون جوان : السماء تريد ذلك.
دون كارلوس : كفى، يا دون جوان، لقد فهمت. لن أبارزك هنا فالمكان غير مناسب ولكني سأعرف كيف أجدك في القريب العاجل.
دون جوان : إفعل ما تشاء. أنا لا أفتقر للشجاعة، كما تعرف، وأجيد استعمال سيفي عند الضرورة. بعد قليل، سأكون في ذلك الشارع الصغير النائي الذي يقود الى الدير الكبير. ولكني أعلمك بأنني لست انا من يريد المبارزة فالسماء تمنعني من التفكير بها. سنرى ما سيحدث إذا هاجمتني.
دون كارلوس : سوف نرى فعلاً، سوف نرى.

المشهد الرابع

دون جوان، سغاناريل.

سغاناريل : ما غايتك من هذا، يا سيدي، إن هذا الأمر هو الأسوأ بين كل الأمور التي فعلتها، وافضّل أن تبقى كما كنت في السابق. كنت دائماً آمل في خلاصك ولكني يئست منه الآن وأظن أن السماء والتي تحمّلتك حتى هذه الساعة، لن تقبل بهذا العمل الأخير الفظيع.
دون جوان : هيا، هيا، السماء ليست صارمة كما تظن فالرجال في كل مرة ...
سغاناريل (**يلمح الشبح**) : آه، يا سيدي، السماء تكلّمك وهذه نصيحة أخرى تعطيك اياها.

دون جوان : إذا شاءت السماء اعطائي نصيحة، فعليها أن تتكلم بصورة أوضح ... إذا كانت تريد أن أسمعها.

المشهد الخامس

دون جوان، شبح (بزي إمرأة متسترة)، سغاناريل

الشبح : لم يعد امام دون جوان سوى لحظة واحدة للإستفادة من رحمة السماء وإذا لم يتبِ الآن فموته محتوم.

سغاناريل : هل سمعت، يا سيدي ؟

دون جوان : من يجرؤ على قول هذا الكلام ؟ اني اعرف هذا الصوت، على ما أظن.

سغاناريل : هذا شبح، يا سيدي، فأنا أعرفه من مشيته.

دون جوان : اريد أن أعرف ما هو، شبحاً كان أو شيطاناً.

(يبدُّل الشبح فيمثل الزمن وهو يحمل منجلاً في يده).

سغاناريل : أيتها السماء ! أرأيت، يا سيدي، كيف تغيّر وجهه ؟

دون جوان : لا، لا، لا شيء يستطيع ارهابي واريد أن أتبيّن بسيفي إذا ما كان جسداً أو روحاً.

(يطير الشبح في الزمن عندما يحاول دون جوان ضربه).

سغاناريل : آه، يا سيدي، استسلم امام هذا القدر من البراهين وتب بسرعة.

دون جوان : لا، لا، مهما يحدث، فلن استطيع التوبة. هيا، اتبعني.

المشهد السادس

التمثال، دون جوان، سغاناريل

التمثال :توقف، يا دون جوان، لقد وعدتني البارحة بتناول العشاء معي.
دون جوان : أجل. الى اين ينبغي الذهاب ؟
التمثال : أعطني يدك.
دون جوان : ها هي.
التمثال : إن التشبث بالخطيئة، يا دون جوان، يُسَبِّبُ موتا مشؤوماً، ونعم السماء إذا رفضناها تفتح الطريق أمام صواعقها.
دون جوان : ايتها السماء ! بماذا أشعر ؟ نارٌ خفيّة تأكلني .. لم أعد استطيع التحمّل .. جسدي كله أصبح جمراً متوقداً .. آه !

(البرق والرعد يرافقان سقوط الصاعقة. فتنشقُّ الأرض والهاوية وتخرج منها نار كبيرة في الموضع الذي سقطت فيه الصاعقة).

سغاناريل : آه، مرتّبي، مرتبي ! ها إن موته هكذا قد ارضى الجميع : الجميع مسرورون : السماء التي أُهِينَت والقوانين التي خُولِفت والفتيات المغرَّرُ بهن والعائلات التي هُتِكَت أعراضها والأهل الذين لَحِقَ بهم العار، والنساء المضلّلات والأزواج الذين فقدوا صبرهم وخارت قواهم كلهم راضون بموته إلا أنا فقد فقدت مرتبي ومالي .. ما من تعيس غيري .. مالي مالي مالي.

(تمّت)